

يوهان كريستوف آرنولد

تقديم
ستيف تشاك

قصص شفاء من سرطان البُغض والكراهية

لماذا نغفر؟

لماذا نغفر؟

Why Forgive?

بقلم

يوهان كريستوف آرنولد

Johann Christoph Arnold

تقديم

ستيف تشاك

Steve Chalke



دار المحراث لنشر الكتب

THE PLOUGH PUBLISHING HOUSE

يرجى مشاركة هذا الكتاب مع أصدقائكم. ولا تترددوا في إرساله في البريد الإلكتروني أو طبع الكتاب كلياً أو جزئياً، ولكن الرجاء عدم إجراء أي تغيير بأية طريقة كانت. وإذا رغبتكم في عمل نسخاً متعددة منه لتوزيعه على نطاق واسع، أو لإعادة استنساخ أجزاء منه كرسائل إخبارية أو دورية، فيرجى مراعاة القيود التالية:

* لا يجوز إعادة نشره لمكاسب مادية.

* يجب إدراج عبارة الائتمان التالية: "حقوق الطبع والنشر لدار المحراث لنشر الكتب - سنة 2010. تم استخدامه بعد الإذن".

هذا الكتاب من منشورات دار المحراث لنشر الكتب، في عنوانيه التاليين:

15437 USA ،PA ،Farmington

www.plough.com

UK ،TN32 5DR ،East Sussex ،Robertsbridge

www.ploughbooks.co.uk

جميع الحقوق محفوظة

Copyright © 2010 by Plough Publishing House

Farmington, PA 15437 USA

إلى زوجتي "فيرينا"
التي بدون محبتها وتعزيدها لي،
ما كنت كتبتُ أيًا من هذه الكتب.

المحتويات:

6	تقديم
8	تمهيد
10	1. سرطان النعمة والبغض
14	2. التغلُّب على الكراهية بالمحبة
21	3. إنهاء دوامة الحقد
27	4. باركوا الذين يضطهدونكم
37	5. العُفران والعدالة
45	6. العُفران حين تكون المُصالحة مُستحيلة
49	7. العُفران في الحياة اليومية
59	8. العُفران في الزواج
66	9. العُفران للأب - أو للأم - الذي أساء معاملة أولاده
75	10. عُفران الإنسان لنفسه
82	11. تحمُّل المسؤولية
89	12. لوم الله
96	13. إثارة موجات
109	خاتمة: هوذا الكُلُّ قد صار جديداً
111	نبذة من سيرة المؤلف
112	نبذة عن جماعة "المجتمع الأخوي"

تقديم

ماذا
تفعل عندما يُفاجئك صديقك بتصويب طلقات مسدسه نحوك؟
كانت إجابة هذا السؤال سهلة بالنسبة لروجر، فقد استخدم مُسدّسه، وقال إنه لو
أُتيحت له الفرصة لاستخدمه مرّة أُخرى، لأنّ حياته كانت قد امتلأت برغبة مُتأجّجة في
الانتقام لموت ابنته.

كانت سارة بالخارج تركب دراجتها عندما صدمها سائق ثمل وماتت في الحال. ولم يكن هناك
شكّ من جهة الشخص المُتسبّب في تلك الحادثة، وقد أرسل السائق . الذي لم يكن يحمل رُخصة
قيادة سارية بسبب إدانته السابقة بالقيادة وهو ثمل . إلى السجن بتهمة القتل. لم يكن هذا العقاب
كافياً بالنسبة لروجر، فعندما أُطلق سراح السائق من السجن استعار روجر مسدس وأطلق عليه
الرصاص مُتعمّداً.

وانقلبت الأدوار الآن، ووجد روجر نفسه مُتهماً بمُحاولة قتل، والغريب أنّه أبلى بلاءً حسناً على
الرغم من أنّه كان يُحاكم بتهمة مُحاولة قتل إنسان. ووجدت هيئة المُحلفين السائق، الذي لم يُبدِ أيّ
نوع من أنواع الندم، مُثيراً للاشمئزاز، لدرجة أنّهم أصدروا حكمهم بالإجماع على روجر "بأنّه ليس
مُذنباً". إلا أن روجر لم يشعرُ بالرّضا على الرغم من نجاحه في الإفلات من عُقوبة سجن طويلة.

وعندما تحدّثُ معه ومع زوجته "كاثي"، كان كلّ ما يُفكّران فيه هو الانتقام من قاتل سارة،
فسألَت روجر إن كان الضّغط على زناد المُسدّس ورؤية ذلك الرجل ينهار من الألم بعدما يطلق النار
عليه سيجعله يشعر بأنّه أفضل، فقال "لا. فقط عندما أقتله سأشعرُ بالرضا." فسألَت كاثي عن
مشاعرها تجاه هذا الأمر، فقالت: "لن أكون سعيدة إن قتل روجر ذلك الرجل، لأن هذا يعني أنّي لن
أقتله أنا بنفسي، فأنا بحاجة إلى الضّغط على الزّناد بنفسي، أودُّ أن أراه ميّتاً، وأعلم أنني مسئولة عن
موته."

تأثرتُ كثيراً بالحزن الذي كسر قلبيهما وأنا جالس معهما في منزلهما، ولم يكن بمقدوري أن أتصور المحنة الرهيبة التي كانا يمران بها، بل وشككت في عقلي بعدالة القانون الذي أعطى قاتل سارة عقاباً مُحففاً من جهة، وبرود القاتل وقسوة عنجهيته وعدم إظهاره أي شعور بالندم هزّ بدني من جهة أخرى. ولكني لم أستطع مقاومة الشعور بجزن أكبر بسبب الطريقة التي كانا يتعاملان بها مع موت ابنتهما تلك التي تسببت في شعورهما بالنعاسة. وبدا لي أنّ عدم قدرتهما على العُفْوان ونسيان الأمر جعلهما في مواجهة جحيمٍ آخر. فمع صباح كُلِّ يوم جديد كانت حياتهما تمتلئ بالشعور بالبغض والكرهية، وهو أمر مُيت مثلهُ مثل السرطان. هل هذا حقاً ما كانت سارة ستريدهُ لوالديها؛ ذلك الجحيم الحي الذي يُدمر حياتهما بالرغم من أنه ليس له أي تأثير على القاتل نفسه؟! هل هناك طريقة يستطيع بها أمثال "روجر" و "كاثي" أن يتعلّما العُفْوان؟ وهل كان يُمكن لهما أن يتحرّرا من الشعور بمرارة البغض الذي كان يُعدّهما؟ يحاول "يوهان كريستوف" في كتابه "لماذا نغفر؟" أن يُجيب عن بعض من هذه الأسئلة. ويمتلئ الكتابُ بقصصِ أناس وجدوا القُوّة للعُفْوان لأولئك الذين أساءوا إليهم على الرغم من الظروف الصعبة. وعندما فعلوا، وجدوا السلام. إنهم رجال ونساء عاديين مثل "جوردون ويلسون" الذي قُتلت ابنته بسبب قنبلة من الجيش الأيرلندي السري IRA في أينيكيلين، و "فان تي كيم فوك" وهي طفلة مُحترقة وعارية في سنّ التاسعة، وسط الحراب الذي تسببت فيه حرب فيتنام. ويحوي الكتاب أيضاً قصصاً للعُفْوان شبيهة إلى حدّ كبير بما يُمكن أن يحدث لدى مجتمعات كنيستنا التي تعيش حياة مشتركة: أزواج وزوجات يُعانون من الشجار المرير، أو ارتكبوا خطية الزنا، أو كانوا ضحايا لاعتداءات في مرحلة الطفولة.

يُعيد "آرنولد" سرد كُلِّ تلك القصص مُنتهى العطف والحنان ودون إدانة. وهي على أي حال قصص مؤثرة ولا يُمكن لأي شخص أن يقرأها دون أن يتغيّر، لأنها تحثنا على سبر أغوار جوانب طبيعتنا التي قد تُهدد بدمارنا إن لم نُراجعها. ولكنّها أيضاً تُقدّم لنا الوسيلة الناجحة للخروج من لعنة مرارة الحقد والكرهية. يُقدّم هذا الكتاب رسالة هامة لجميعنا من الذين يجدون صعوبة في أن يغفروا للآخرين أو لفسنا، كما هو الحال مع كثيرين.

ولكن لا تعتمد على كلماتي، عليك أن تقرأ الكتاب بنفسك...

ستيف تشالك Steve Chalke

لندن 1997

هل يمكنُ الغُفرانُ لرجلٍ مثل هذا؟

يا له من قانونٍ صعبٍ، ذلك الذي يقول إننا لا يمكنُ أن نُشفى من جروحنا العميقة ما لم نغفر.

آلان باتون Alan Paton

في صباح أحد الأيام في سبتمبر 1995، وبينما كنتُ جالساً احتسي القهوة وأقرأ الصحف المحليّة، ارتعبت حين قرأت عناوين الجريدة التي تُخبرنا باختطاف فتاة عُمرها سبع سنوات في وضوح النهار، ولقد تابعت القصة عن كثب طوال الأيام التالية. لقد تم العُثور على تلك الفتاة في خلال أسبوعٍ من اختطافها، مُلقاة في منطقة غابات على بُعد ياردات قليلة من سجن المدينة، وقد تعرّضت للاغتصاب والضرب حتّى الموت، والأسوأ من ذلك أنّ الرجل الذي اعترف بارتكابه للجريمة، اتّضح أنّه كان من معارف الطفلة، أيّ أنّه كان شخصاً يمكنها أن تثق به!

كان من المُمكن التنبؤ برّد فعل الجمهور، فهذا الرجل يستحقُّ الموت، ويجب أن يُحكم عليه بأقصى عقوبة. وعلى الرُغم من أنّ المُحامي العام كان قد وعد بتقليل العقوبة لعشرون عاماً على الأكثر في مُقابل تبادل المعلومات التي أدّت إلى الوصول لجُثّة الطفلة، إلّا أنّه عاد وعدل عن وعده بعد عدّة أيام قائلاً إنّّه تعاهد مع الشيطان حتّى يجد الطفلة، وإنّه يأمل أن يُصبح أوّل نائب عامٍ في تاريخ نيويورك يقوم بتنفيذ حُكم القتل في عُرفة الإعدام. وقد اقترح سُكّان المدينة في الصُحف أن تُطلق السلطات سراح هذا المُجرم المُغتصب حتّى "يتولّوا هم أمره".

وعلى الرغم من أن تلك المشاعر الغاضبة مفهومة، إلا أنني تساءلت: هل هذه المشاعر تأتي بالعزاء لأسرة الضحية المكلومة؟! وقد شعرت تماماً بما يجب أن يكون عليه رد فعلي كراعي كنسي، ورثت مُثليين من كنيسة للمشاركة في الجنازة، وأرسلت الزهور لوالدي الطفلة، وحاولت جاهداً زيارة الأسرة ولكني لم أتمكن من ذلك، إلا أن قلبي امتلأ بالثقل، وبطريقة ما علمت أنه عليّ زيارة القاتل أيضاً، (فقد كان بالنسبة لي حتى هذه اللحظة وحشا لا أعرف شكله)، وذلك لكي أواجهه بأفعاله وأساعده ليتوب عن ما كان قد ارتكبه.

أعلم أن البعض سينظرون باستنكار لتلك الزيارة إن لم يسيئوا فهمها كُلية، ولكني كنت مقتنعاً بأن هذا هو واجبي. وهكذا وجدت نفسي بعد عدة أشهر جالساً بمُفردي في سجن المدينة وجهاً لوجه مع ذلك القاتل، وقد صُغقتُ من الأثر الذي تركته تلك الساعات التي قضيتها معه عليّ وتركتُ في داخلي مجموعة من الأسئلة من دون إجابات، وهي تلك الأسئلة التي قادتني إلى كتابة هذا الكتاب، لماذا يجب عليّ أو على أي شخص آخر أن يغفر لهذا الرجل؟ وما الذي سيُغيّره الغفران؟ وهل يُمكنني أن أغفر له إن لم يُبدِ هو من جهته أي شعور بالندم؟ وإن أبدى أي شعور بالندم، فهل يكون من حقّي أنا أن أغفر له (مع أنه لم يُؤذني أنا شخصياً بطريقة مُباشرة)؟!

وبعد مُضي أقل من ثلاثة شهور على زيارتي للقاتل واجه أخيراً أسرة الضحية، وقد كانت قاعة المحكمة تعجُّ بالحاضرين، ومُمكنك أن تشعر بمشاعر العداوة بمُجرد دخولك إليها. كانت العقوبة هي السجن مدى الحياة والتي تبعها القاضي بعبارة وجهها للمُتهم قائلاً له: "أرجو أن يكون الجحيم الذي تواجهه هنا الآن في السجن مُجرّد بداية للجحيم الذي ستواجهه في الأبدية!"

وسُمح أخيراً للمُتهم أن يتكلّم بكلمات قليلة، فقال بصوت مُرتفع لوالدي الطفلة إنه آسف فعلاً على الألم الذي تسبّب فيه لهما وإنه يُصلي يومياً طالباً للغفران، وعندما انتشر الهمسُ الغاضبُ بين الجالسين، سألتُ أنا نفسي أصعب سؤال: "هل يُمكن أن يُغفر لمثل هذا الرجل؟"

يوهان كريستوف آرنولد

مؤلف الكتاب

سرطان النعمة والبغض

من يختار الانتقام يجب أن يحضر قبرين.

مثل صيني

إنَّ العُفْران هو الطريق للسلام والسعادة، وهو السرُّ الذي إن لم نسعَ لاكتشافه لظلَّ خفياً عنَّا. ليس الهدف من هذا الكتاب أن يكون بمثابة مُرشد عمليٍّ للعُفْران، لأنَّه من المُستحيل أن تُخبر شخصاً كيف يجب أن يغفر، ولكنِّي آمل أن يُساعد هذا الكتاب في توضيح السبب وراء الحاجة إلى العُفْران.

إنَّ العُفْران أمرٌ مُمكن، وهذا هو ما تُظهره قصص هذا الكتاب، حيثُ تُعلِّم الناس أن يغفروا حتَّى في أصعب الظروف. وأنا أتمنَّى أن أساعدك للوصول إلى الباب الذي يقودك إلى طريق العُفْران بسردي لتلك القصص، ومُجرَّد أن تصل إلى الباب، فستكون أنت الشخص الوحيد الذي يكون بمقدوره أن يفتحه.

ما معنى العُفْران؟ قال سي. أس. لويس C. S. Lewis إنَّه يتعدَّى العدل الإنساني، إذ أنَّه يصفح عن تلك الأمور التي لا يُمكن الصّحح عنها أبداً. هو إذن أكبر من مجرد التماس الأعذار، فعندما نلتمس نحنُ العُذر لشخص ما، فإنَّنا ننحي جانباً الأخطاء التي ارتكبتها ولا نُعاقبه عليها، ولكننا عندما نغفر، فنحن لا نتسامح فقط في الخطأ أو تجاه الفعل المُتعمد للشر، ولكننا أيضاً نعلم جيِّداً أن ذلك الشخص هو المسؤول عن الخطأ، ونسعى إلى إعادة تأهيله واستعادته مرة أخرى. قد لا يكون عُفْراننا

مقبولا دائماً، ولكن مُجَرَّد أن نبادر بالْعُفْران فستصبح نفوسنا طاهرة من الشعور بالكراهية. رُبَّما نظل مجروحين، ولكننا على الأقل لن نستخدم الألم الذي نشعر به لإحداث مزيد من الألم للآخرين. فنحن عندما نستعيد مرةً أخرى تلك الذكريات السلبية الخاصة بإساءة آخرين في حقنا، فإن أمراً كهذا سيستفحل ليصير ظنوناً سيئة، ولا يهم ما إذا كان سبب هذا الظن صحيحاً أم وهماً، إذ أن تأثير كلاهما واحد. فبمُجَرَّد أن نصل لتلك المرحلة، سنجد أن الظن قد استهلك قُوانا حتى ننفجر ونُفسد كل شيء من حولنا.

جميعنا يعرف أناس يشعرون بالبغض، هؤلاء لديهم ذاكرة مُدهشة لأدق التفاصيل، وهم ينغمسون في الشعور بالشفقة على الذات والكراهية. كما أنهم يوثقون كل ظلم وقع عليهم، ويكونون على استعداد دوماً لأن يُظهروا للآخرين إلى أي مدى هم متألّمون، وهم قد يبدو هادئين من الخارج، ولكنهم يكونون في واقع الأمر مملوئين بالكراهية من الداخل.

وعادة ما يُدافع هؤلاء الناس عن شعورهم بالسخط والنعمة باستمرار قائلين إنهم قد تألموا وعانوا كثيراً، وأمراً كهذا - بحد ذاته - لهو كفيلاً لأن يُعفيهم، بطريقة ما، من حاجتهم للعُفْران. لكن الحقيقة هي أن هؤلاء الناس يحتاجون إلى العُفْران أكثر من غيرهم، فقلوبهم في بعض الأحيان تمتلئ بالضغينة للدرجة التي تجعلهم يفقدون القدرة على المحبة!

منذ ما يقرب من عشرين سنة تحدثت وأبي لوقت طويل مع امرأة من هذا النوع مُحاولين مُساعدتها، فقد مات زوجها ولكنها كانت قاسية وبلا مشاعر مثل الصخرة، وعاشت حياة بلا لوم في نظر العالم، إذ كانت شديدة الترتيب والتدقيق وتعمل بجد، وأمينة ومقتدرة ويُعتمد عليها، ولكنها كانت لا تستطيع أن تُحب. وبعد شهر من الصراع، اتضح السبب وراء شعورها بالبرودة، إذ أنها لم تكن قادرة على العُفْران، ولم يكن بإمكانها الإشارة إلى ألم مُعين بعينه بحياتها، ولكنها كانت مُنحنية تحت ثقل الآلاف من الظنون الصغيرة مُجمعة معاً.

إن مرارة الكراهية هي أكثر من مُجَرَّد نظرة سلبية للحياة. فهي هُدامة وتهدم الشخص بحد ذاته أيضاً. فعندما تحتفظ أنت عمداً بالضغينة تجاه شخص آخر، فسيكون لهذا تأثير مُدمر على نفسك. إذ أن أمراً كهذا سيفتح الباب للشر، وسيتركنا مُعرضين لأفكار الكراهية والانتقام، بل ولأفكار القتل. وبهذا يتدمر النفس والجسد أيضاً. ونحن نعلم أن الشد النفسي يمكن أن يتسبب في حدوث قُرحة أو آلام الصداع، ولكننا عادة نُخفق في رؤية العلاقة بين مرارة الاستياء والأرق على سبيل المثال. فقد أظهرت الأبحاث الطبية علاقة وثيقة بين الغضب الغير محلولة مشكلته، وبين النوبات القلبية: فيبدو أن الذين يجسسون استيائهم ومرارتهم يكونون أكثر عرضة للإصابة بالأمراض من أولئك الذين يتمكنون من تهدئتها عن طريق التنفيس عن مشاعرهم.

منذ فترة ليست بطويلة، طلب مني مساعدة امرأة شابة تُدعى "برندا Brenda" كانت قد تعرضت للاعتداء الجنسي من عمها القسيس. وعلى الرغم من أنها ومن غير شك كانت ضحية بريئة لذلك الرجل الفاسق والرهيب، إلا أن شعورها بالبؤس كان قد صار جزءاً من تكوينها النفسي، فلم ترغب بل لم تقدر على تجميع قواها النفسية لتغفر.

وصرخت "برندا" إليّ يائسة بعدما قضت سنوات طويلة في الخوف من الفضيحة وفي إدمان الكحوليات التي كان يمدّها بها عمّها - معدّها - كلّ يوم كهدايا. اجتازت "برندا" مشواراً طويلاً في غمار الحصول على استشارات من الأطباء النفسيين، وكان لديها كلّ رفاة مادية يمكن أن ترغب فيها. وكانت تشغل وظيفة مرموقة ولديها شبكة من الأصدقاء الذين قدموا لها الدعم، وقد تمّ القيام بكل ما هو مستطاع لمساعدتها لاستعادة وضعها الطبيعي، ولكن بدون جدوى. وبالرغم من هذا، إلا أن مشاعرها كانت تتأرجح بصورة كبيرة ما بين الضحك المفرط والبكاء الذي لا يمكن إيقافه. وكانت تنغمس في التهام الطعام في أحد الأيام، ثمّ تُضرب عنه في اليوم التالي. وكانت تشرب زجاجة وراء الأخرى من المشروبات الكحولية، مُحاولاً بذلك أن تنسى مُشكلاتها.

رُبما كانت "برندا" واحدة من أصعب الناس الذين سعيْتُ لمُساعدتهم. كُنْتُ مُتردداً في التحميل عليها بأيّ شعور بالذنب، ولكن بدا واضحاً لي أنّها هي وحدها التي بيدها أن تبادر في عملية الشفاء. فما لم تتعلّم العُفْران للشخص الذي اعتدى عليها، فإنّها ستظلُّ تشعر بأنّها ضحيّته. ولكن للأسف كانت كلُّ مُحاولاتنا معها فاشلة. فازداد شعورها أكثر وأكثر باليأس بسبب شعورها بالبغض والحيرة، وأخيراً حاولت أن تخنق نفسها وتم نقلها للمُستشفى.

إنّ الجراح التي يُخلّفها الاعتداء الجنسي ربما تستغرق سنوات لتُشفى. وعادة ما تترك مثل هذه الجروح آثاراً تستمرُّ لمدة طويلة. ولكن يجب ألاّ يؤدّي الأمر إلى الشعور بالعذاب مدى الحياة أو إلى الانتحار. وفي كلّ الحالات التي تتشابه مع حالة "برندا" وجدتُ الضحايا يحصلون على تحرّز وحياة جديدة عندما يغفرون للمُغتصب، ولهؤلاء الذين سمحوا باستمرار الاغتصاب أو فشلوا في رؤية ما يحدث في ذلك الوقت، وبالتالي فلم يتمكنوا من إيقافه (وإن كان هذا لا يعني بالضرورة النسيان أو التغاضي عن الأمر). ولا يتوقّف الأمر هنا على شرط الالتقاء وجهاً لوجه مع المُغتصب، ولكنّه يعني أن تتخذ قراراً إرادياً بالتوقّف عن الكراهية، لأنّ الكراهية لن تقوّدك إلى شيء، فهي تنتشر في الشخص مثل السرطان حتى تُدمره بالكامل.

قبل عدة شهور تقابلت مع "آن كولمان Anne Coleman" وهي أمٌّ من ولاية ديلاوير Delaware الأمريكية، أخبرتني بما حدث لابنها "دانيال" لأنه لم يستطع أن يغفر:

عندما قُتلت ابنتي "فرانسيز" في عام 1985 كُنْتُ يائسة. ففي صباح أحد الأيام تلقَّيتُ مكالمة تليفونية من ابنة أختي في لوس أنجلوس تقول: "فرانسيز ماتت، فقد أُطلق عليها الرصاص" ولا يمكنني أن أتذكر أنني صرخت، ولكني فعلاً صرخت. وخطَّطت للذهاب إلى كاليفورنيا في الحال، وفي الطائرة فكرتُ فعلاً أنه بإمكانني أن أقتل شخصاً ما، فلو كان معي سلاح ورأيتُ الشخص الذي أصابها، لكنني فعلتُ ذلك حقاً.

ومرور الوقت هبطت الطائرة وكُنْتُ قلقة على الطريقة التي سأقابل بها ابني "دانيال" الذي ركب الطائرة من ولاية هاواي، وكان "دانيال" ضابطاً في الجيش ومُدرباً على القتل.

وعندما وصلنا إلى قسم الشرطة في صباح اليوم التالي، كان الشيء الوحيد الذي أخبرونا به هو مجرد أن ابنتنا ماتت، وأن أي شيء آخر ليس من اختصاصنا. وللأسف بقي الحال هكذا طوال الأيام التي قضيناها في لوس أنجلوس. وأخبرني ضابط شرطة المباحث أنه إن لم يتم القبض على الجاني في خلال أربعة أيام، فلا يجب أن أتوقع أنهم سيقبضون عليه لاحقاً! ثم استطرد: "فنحن لدينا الكثير من جرائم القتل في هذه الضاحية من المدينة، ولا نعتبر جريمة القتل سوى أربعة أيام فقط!"

أغضب ذلك الكلام ابني "دانيال" للغاية. وعندما اكتشف أن قسم الشرطة غير مهتم فعلاً بالعثور على قاتل أخته، أراد أن يشتري رشاشة من نوع "عوزي Uzi" ويحصد الناس حصداً.

ولم يهيئنا أحد لما رأيناه عندما ذهبنا لنأخذ سيارتها. فقد نزفت "فرانسيز" حتى الموت في سيارتها، إذ اخترقت الرصاصات الشريان الأورطي وقلعها ورثتها، وقد اختنقت بدمها. وماتت في وقت مُبكر من صباح يوم الأحد. وأخذنا سيارتها في وقت مُتأخر من مساء يوم الثلاثاء. وكانت تبعث السيارة رائحة تنينة. ولم تبرح تلك الرائحة ذهن "دانيال" الذي أراد الانتقام بأبشع صورة ممكنة. فقد أراد فعلاً أن يجد مَنْ يساعده بأية طريقة كانت - كنوع من العدالة على مقتل أخته.

وطوال السنتين والنصف التاليتين، رأيتُ "دانيال" تسوء حالته بسرعة، إلى أن وقفتُ يوماً إلى جوار مقبرة أخته أراقبهم وهم يُزلونهُ إلى الأرض ليُدفن، فقد أخذ بالثأر أخيراً - أخذه من نفسه. ورأيتُ ما تفعله الكراهية، إذ أنها تُدمر ذهن الإنسان وجسده!

التغلب على الكراهية بالحبّة

لذا ارجُ تقيراً كبيراً في البحر
بعيداً عن الانتقام
وآمن بأنّ هناك شاطئ أبعد
يمكن الوصول إليه من هنا
آمن بالمعجزات
وينابيع الشفاء

يعلمنا التاريخ أن لا أمل قبل القبر
ولكن وأنت حي الآن،
ستعلو موجة العدالة التي
طال انتظارها،
وعندئذ يربطُ الواقعُ بالأمل

Seamus Heaney سيموز هيني

أمسك "جوردون ويلسون Gordon Wilson" بيد ابنته عندما إحصراً تحت أكوام من الأنقاض. كان ذلك في عام 1987 عندما كان وابنته "ماري" يحضران مراسيم لذكرى معينة في مدينة أينسكيلين في أيرلندا الشمالية. وكانت الأجواء هادئة جداً أثناء المراسيم. وهناك انفجرت قنبلة إرهابية. وفي نهاية اليوم لقت "ماري" وتسع مدنيين آخرين مصرعهم ونُقل ثلاث وستون آخرون إلى المستشفى لإصابتهم بجراح.

والغريب أن "جوردون" رفض الانتقام قائلاً إنَّ الكلمات الغاضبة لا يمكن أن تُعيد له ابنته، ولا أن تأتي بالسلام إلى بلده. وبعد ساعات قليلة من الانفجار تحدّث مع مراسل الـ بي. بي. سي قائلاً:

لقد فقدتُ ابنتي، وطبعاً سنفقدها. ولكنني لست أحمل ضغينة... ولا حقداً، فهذا لن يُعيدها لي مرةً أخرى... ولا تسألوني من فضلكم عن السبب... لأنّه ليست لديّ إجابة. ولكنني أعلم أنّه لا بدّ وأنّ

هناك قصدا من وراء موتها. وإن لم أفكر هكذا، فلا بُدَّ وأنِّي سأقدم على الانتحار. إذ أنَّ موتها جزءاً من خطة أعظم... وستقابل معاً مرةً أخرى.

وقد قال "جوردون" لاحقاً إنَّ كلامه ليس عبارة عن إجابة لاهوتية عن موت ابنته. فهو مجرد عبّر عما كان يخالج صميم قلبه. وبعد مُضيَّ أيّام وشهور على الانفجار، صارع لكي يجيب بحسب هذا الكلام. ولم يكن أمراً كهذا سهلاً، ولكن كان هذا الكلام بمثابة شيء يتعلّق به، شيء ليُجعله حياً في الساعات الحالكة. كان يعلمُ أن الإرهابيين الذين قضاوا على حياة ابنته لم يشعروا بالندم، وقد أراد أن يحصلوا على العقاب ويُودعوا في السجن. وقد أساء كثيرون فهمه لأنّه رفض أن يطلب الانتقام لحياة ابنته. فقد قال:

هؤلاء المسؤولون عن ارتكاب هذا الفعل سيواجهون دينونة الله، والتي هي خارج نطاق مغفرتي لهم... وقد يكون خطأ بالنسبة لي أن أُعطي انطباعاً بأن هؤلاء المسلّحون ومن ضربوا تلك القبلة يجب أن يُطلق سراحهم ليسيروا أحراراً في الشوارع. ولكن... سواء تمت محاكمتهم هنا على الأرض بقانون المحاكم أم لا... فإنّي سأبدلُ قصارى جهدي كبشر أن أظهر لهم العُفران... وصاحب القرار الأخير سيكون الله.

سمح عُفران "جوردون" له أن يتأقلم مع وفاة ابنته المفاجئ وآثاره التي امتدت إلى أمور أبعد منه كشخص. فعلى الأقلّ، ولو وقتياً، كسرت كلماته دوامة القتل والانتقام: فقد أحسَّ قادة الميليشيات البروتستانتية بالذنب لشجاعة "جوردون" من أنه لم يطالب بالانتقام.

الحقيقة هي أننا حتى لو أدركنا حاجتنا إلى العُفران، فإننا في بعض الأحيان ننعوي ونَدّعي بأنه ليس بإمكاننا أن نغفر. فببئر موقفنا بأن الأمر صعب جداً، وموجع جداً؛ وقد نظن أن القدرة على العُفران يتمتّع بها القديسون لا نحن. وقد نعتقد إما أننا إنجرحنا زيادة، أو لم يتمّ سماع جانبنا من القصة، أو لم يقدر أحد أن يفهم ما مررنا به.

لقد تأثر كثير من الأمريكيين بقصة "ستيفن ماكدونالد Steven McDonald" ولكن بدا أنّ قليلون فقط هم الذين فهموا أنّ عُفرانه ليس مسألة عمل بطولي لقوّة إرادة خارقة الطبيعة. كان "ستيفن" ضابطاً في البوليس في مدينة نيويورك حين تمّ إطلاق الرصاص عليه، ممّا أصابه بالشلل من الرقبة إلى أسفل في عام 1986 أثناء استجوابه لثلاثة من الشباب في المتنزه المركزي للمدينة Central Park. ولم يكن قد مضى على زواجه حتى عام، وكانت زوجته حاملاً في الشهر الثاني.

كان "شافود جونس Shavod Jones"، وهو الشخص الذي هاجم "ستيفن"، يسكن في أحد مشاريع الإسكان الفقيرة في حي هارلم في مدينة نيويورك، في حين كان "ستيفن" يعيش في مقاطعة ناساو الغنيّة والتي تقطنها غالبية بيضاء. كان من المُمكِن أن تنتهي المُقابلة القصيرة بين الاثنين بالسجن لأحدهما وبالشعور بالنعمة طوال الحياة للآخر. ولكن قبل أن يتمّ إطلاق سراح "شافود" كان "ستيفن" قد بدأ في مُراسلته مُحولاً أن يجلب السلام ومعناً إلى حياة ذلك الشاب. فيكتب قائلاً:

لم يرح من ذهني السؤال: لماذا أُطلق عليّ الرصاص؟ وأنا مُضطجع في الطابق السادس من الجناح الجنوبي للمستشفى، أنظر إلى السقف مُتّحيراً، ولكّني وجدت أنّه لا يُمكنني أن أكرهه، فقد أتت به الظروف إلى ذلك المتزّه في تلك الظهيرة، ومعه مُسدساً يُخبئه في سرواله.

فلم أكن سوى شارة شرطي لذلك الصبي، أو زيّ يُمثّل الحكومة، فقد كُنْتُ بالنسبة له النظام الذي جعل الملاك يُطالبون بإيجار للشقق الحقيمة في المباني المُتهالكة؛ وقد كُنْتُ أُمثّل في نظره الجهة المسؤولة في المدينة التي تتولى أمر جيرانها من الأحياء السكنية الفقيرة وتطرُد سُكّانها بحجة تحسين المستوى لكن بغضّ النظر عمّا إذا كانوا أناساً مُلتزمين بالقانون أو مُجرمين، وقد كُنْتُ أنا الضابط الأيرلندي الذي ظهر في نزاع محليّ ورحل دون أن يفعل شيئاً لأنّه لم يَكُن هناك خرق للقانون.

وبالنسبة لـ"شافود جونس" كُنْتُ أنا كبش الفداء، والعدوُّ. فمن جهته لم يريني كإنسان، أو كشخص له أحبائه، أو كزوج له زوجة أو كآبّ في القريب العاجل إن شاء الله. فقد تربّيت على نظرة مجتمعه لرجال الشرطة الذين يتّسمون بالعنصرية والعنف، لذلك كان عليه أن يتسلّح ضدّهم. كلا، لا يمكنني أن أُلوم "جونس". فقد كان المجتمع - الذي يتألف من عائلته والهيئات الاجتماعية المسؤولة عنه والناس الذين جعلوا من المُستحيل أن يجيا أبواه معاً - هو الذي أخفق معه بمدة طويلة قبل أن يتقابل "شافود جونس" مع "ستيفن ماكدونالد" في متزّه المدينة...

في بعض الأيام حين أشعر بأنّي لستُ على ما يُرام، أشعر بالغضب الشديد، ولكّني أدركت أنّ الغضب عاطفة بلا فائدة. فأحياناً أشعر بالغضب تجاه ذلك المُراهق الذي أطلق عليّ النيران، ولكّني كثيراً ما أشعر بالأسى نحوه. ورجائي الوحيد هو أن يتمكّن من تغيير حياته لكي يُساعد الناس لا لكي يؤذِيهم. فأنا أغفر له، وأمل أن يجد السلام والهدف لحياته.

لم يُجب "شافود" على خطابات "ستيفن" في البداية، وعندما أجاب عليها فشلت المُبادرة لأنّ "ستيفن" رفض طلبه لمساعدته في الحصول على إطلاق سراح مشروط. ثمّ في أواخر عام 1995 بعد مُضيّ ثلاثة أيّام فقط من إطلاق سراحه من السجن قُتِل "شافود" في حادث اصطدام دراجة نارية في شارع ماديسون.

قبل عدّة أشهر عندما زرت "ستيفن" في منزله بجزيرة Long Island في نيويورك ، ذهلتُ على سلوكه الرقيق وعلى عيناه اللامعتان المفعمتان بالحوية وبنفس الوقت على مدى عجزه الكبير. فالحياة على كُرسيّ مُتحرّك من الصعب جداً أن يقبلها حتّى العجوز، فما بالك أن يتخلّى إنسان عن الحياة الطبيعيّة النشيطة في سنّ التاسعة والعشرين فهو أمر - من دون شكّ - مُحبط. وفوق هذا كلّهُ فهو لديه قصة هوائية اصطناعيّة للتنفّس بواسطتها، وهو غير قادر حتى على احتضان أبنه ذي العشر سنوات، فهذا هو "ستيفن ماكدونالد" ولكني مع ذلك كلّهُ لم أشعُر بأيّ غضب أو بغض في داخله. لقد فتح قلبه وحكي لي بهدوء ولكن مجزم، وشرح كيف أن التعرّض لتلك الطلقة، دفعه لكي يُعيد تقييم حياته برُمّتها:

في البداية كان الغفران سبيلاً لي للمضيّ في الحياة، وأسلوباً لنسيان هذا الحادث الفظيع. ولكن فيما بعد أدركت أنّي كُنْتُ أحيَا حياةً أنائيّة، وأنّي أنا نفسي كُنْتُ بحاجة إلى الغُفران. بهذه البساطة ومن غير لفٍ ودوران.

ووجد "ستيفن" هدفاً ومعنى لحياته عندما بدأ يعلم عن الغُفران، فهو يتحدّث بانتظام في المدارس الابتدائية والثانوية وفي حفلات التخرُّج. ويرى أن هذا هو العمل الذي أعطاه له الله ليتمّمه.

وبعد مُضي أحد عشر عاماً من إطلاق الرصاص على "ستيفن"، ما زالت زوجته "باتي" وفيّة له وتقف إلى جواره. وهمّما يصارعان يومياً مع حقيقة عجزه وآثارها على زواجهما. وكثيراً ما يُقاوم "ستيفن" مشاعر الكآبة وأفكار الانتحار. ولكن عندما سألتُه إن كان الغُفران نفسه صراعاً، قال لا، إنّه عطية.

لا يمكن أن يكون الغُفران سهلاً عندما يُجرح الإنسان بشدّة. ولكن حتّى في الحزن الشديد فإنّنا نُواجه اختياراً: إمّا أن نُحِب أو نكره، إمّا أن نغفر أو ندين، إمّا أن نسعى للمصالحة أو للانتقام. ربّما يكون "ستيفن" قد استسلم للبغض والامتعاض، ولكنّه يُغيّر حياة الكثيرين حتّى هذا اليوم لأنّه اختار طريق السلام والمصالحة.

ومن الأبطال الذين يعتزّ بهم "ستيفن"، "مارتن لوثر كنج". ففي أثناء زيارتي له طلب من المررّضة أن تأتي له بمجموعة من كلمات ذلك القائد عن حقوق المدنيين والتي قرأ منها السطر المفضّل لديه والذي يقول: "إنّ الغُفران ليس تصرّفاً عرضياً، ولكنّه موقفاً دائمياً".

غفر "كريس كاريير Chris Carrier" لرجل قد يرغب معظمنا في موته. فعندما كان صبياً في العاشرة من عمره في مدينة ميامي الأمريكية تعرّض للاختطاف والاعتداء عليه من أحد مُوظّفي والده السابقين، ثم تركه بعدها بين الحياة والموت في متنزه أيفرغلادز Everglades الحكومي الكبير المساحة والمليء بالمستنقعات في ولاية فلوريدا، فكتب كريس قائلاً:

لم يكن يوم الجمعة 20 ديسمبر 1974 يوماً عادياً. فقد كان آخر يوم في المدرسة قبل إجازة عيد الميلاد Christmas وخرجنا من المدرسة مُبكراً عن الموعد المُحدّد.

تركت أتوبيس المدرسة في الساعة 1.15 بعد الظهر وبدأت في السير مُتّجهاً للمنزل. وبدا أن هناك رجلاً عجوزاً يسير باتجاهي على الرصيف وكأنه يعرفني. وكُنْتُ على بُعد منزلين فقط من منزلي، فقدم إليّ نفسه على أنه أحد أصدقاء والدي. أخبرني أنه يُعدّ حفلة لوالدي وطلب مني مُساعدته في تزيين المكان.

وافقتُ وسرت معه تجاه الشارع مرّة أُخرى حتّى مركز الشباب حيث كان يترك سيارته (التي هي منزل في ذات الوقت). ومُجرّد أن ركبت السيارة معه، وضعت مُتعلقاتي عنيّ حتّى أريح نفسي. اختفت مدينة ميامي من أمامي بسرعة لأنّ الرجل كان يتّجه نحو الشمال. وأوقف السيارة في منطقة بعيدة عن المواصلات العامّة وعلى جانب الطريق، وادعى بأنّه قد فاتته الاستدارة. فأعطاني خريطة وطلب مني أن أبحث عن رقم مُعيّن، ثم ذهب الى مؤخرة السيارة مدّعياً أنه "سيجلب شيئاً ما". وفيما أنا مُنتظر وأدرس في الخريطة شعرت بلسعة في كتفي ثم أُخرى. فالتفتُ ورائي لأجده يحمل معول لكسر الجليد في يده. ثم سحبني من مقعدي ورماني على الأرض. فجلس بركبتيه عليّ وأخذ يطعنني في صدري عدّة مرّات. فرجوته أن يتوقّف عن هذا ووعدته بأنّه لو تركني وشأني فإنّي لن أخبر أيّ شخص بما حدث.

وشعرت براحة لا توصف عندما قام من عليّ. وأخبرني بأنّه سيُلقيني بي في مكان ما وبعدها سيُكلم أبي وسيعرّفه مكاني. وسمح لي أن أجلس في مؤخرة السيارة وهو يقودها، ولكنّي أدركت الحقيقة المؤلمة من أنّ هذا الموقف خارج نطاق سيطرتي. وعندما سألته لماذا يفعل هذا معي، قال لي إنّ أبي "تسبّب في أن يفقد هو جزءاً كبيراً من أمواله."

وبعدما قاد السيارة لما يقرب من الساعة أو أكثر، اتّجه إلى طريق جانبيّ تُرابيّ، وأخبرني أن هذا هو المكان الذي سيأتي إليّ أبي ليأخذني منه. وسرنا معاً بين الأحرّاش وجلست في المكان الذي أجبرني على الجلوس فيه. وآخر ما أتذكّر هو رؤيته وهو يمضي في طريقه ويتركني.

وبعد مُضيّ ستّة أيّام، وفي مساء يوم 26 ديسمبر وجد أحد صيادي الغزلان المحليين "كريس". وكان رأسه ينزف وعينه سوداوين، فقد أُطلق عليه الرصاص في رأسه واخترقه. وبأعجوبة لم يُصب حُجّه بأذى، ولكنّه لا يتذكّر أنّ هناك من أطلق عليه الرصاص.

في الشهور التالية كان "كريس" يُصارع يومياً مع شعوره بعدم الأمان، لأنّه كان يعلم أنّ الشخص الذي اختطفه حُرّ طليق. وكان عليه أن يتجاوب مع الآثار المُترتبة على جرحه، حيثُ أُصيب بالعمى في أحد عينيه، ممّا جعله غير قادر على الاشتراك في أيّة رياضة. وكان قلقاً بشأن مظهره كما كان سيشعر به أيّ مراهق.

كره "كريس" التحدّث عمّا حدث له، وتذكّر كيف أنّ هذه "الأعجوبة" كان لها أن تتركه في وضع تعيس فعلاً. والغريب أنّه تغيّر عند سن الثالثة عشر. فقد بدأ يرى ذلك الكابوس الذي حدث معه بطريقة مختلفة. وأدرك أنّ جرحه كان من المُمكن أن يكون أسوأ من هذا بكثير، فربّما كان قد تعرّض بسببه للموت. وأدرك أيضاً أنّه لا يُمكنه أن يظلّ غاضباً للأبد. وقرّر أن ينسى هذا الحادث، وينسى كذلك وللأبد الرغبة في الانتقام والشفقة على الذات.

وفي 3 سبتمبر 1996 تلقى "كريس" مكالمة تليفونية غيرت حياته مرّة أخرى. فقد اتّصل به مُحقّق من قسم شرطة مدينة كورال جابلِس ليُخبره أنّ هناك رجلاً يدعى "دافيد ماك أليستر" قد اعترف بأنّه اختطفه. فقد كان "دافيد" يعمل في السابق كمُمرّض مساعد لعم "كريس" العجوز، وقد طرد من عمله بسبب إدمانه للخمر. فقام "كريس" بزيارة "دافيد" في اليوم التالي. يقول كريس:

عندما زُرته في تلك الظهيرة شعرتُ بالشفقة عليه. فلم يعد "دافيد ماك أليستر" هو نفس الشخص المرعب الذي اختطفني، ولكنّه أصبح رجلاً عجوز في السابعة والسبعين من عُمره وكان وزنه أكثر بقليل من ستّين رطلاً. وقد أصبح أعمى بسبب المياه الزرقاء، وقد تُلّف جسده بسبب الخمور والتدخين. ولم يعد له أصدقاء أو عائلة. بالإجمال، كان رجلاً يُواجه الموت بندم شديد.

وعندما بدأتُ أتحدّث مع "دافيد" كان قاسياً، فربّما اعتقد أنّي كنتُ ضابطُ شرطة ثاني، فسأله أحد أصدقائي الذي رافقني بعض الأسئلة البسيطة لكي يقوده للاعتراف بأنّه اختطفني، قائلاً: "ألا ترغب في أن تخبر ذلك الصبيّ الصغير أنّك ندمت على ما فعلته معه؟" فأجاب "دافيد" مؤكّداً: "أمّتي لو كان هذا بإمكانني."

عندئذٍ قدّمتُ نفسي له، وعلى الرغم من أنّه لم يستطع رؤيتي، إلاّ أنّه أمسك بيدي وأخبرني بأنّه أسف على ما فعله معي. وبالمقابل عرضتُ عليه صداقتي وأخبرته بأنني قد غفرت له.

يقول "كريس" إنه لم يكن صعباً عليه أن يغفر، ولكن وسائل الإعلام لم تفهم لماذا غفر له أو كيف حدث هذا. لقد أُعجبت وسائل الإعلام بقدرته على العُفْران، ولكنّها لم تستطع أن تُدرك ما الذي دفعه لمثل هذا العُفْران. فوسائل الإعلام لا تعي عادة معنى العُفْران، فيبدو أنّها تُركّز على قصة الاختطاف وتفاصيل التعذيب، أمّا "كريس" فيقول:

هناك سبب قويٌّ للعُفْران، فعندما يُخطئ الآخرون في حقنا، يُمكننا أن نتجاوب مع هذا الأمر بطريقتين، إمّا أن نسعى للانتقام من الشخص الذي أخطأ في حقنا، أو أن نغفر له. وإن اخترنا الانتقام، سيطر الغضب على حياتنا، لأنّ الثأر يُسلبنا حياتنا، إذ من الصعب أن نُرضي مشاعر الغضب التي في داخلنا وقد نصاب بالإدمان عليه، إلّا أن العُفْران يسمح لنا بالتقدّم للأمام. وهناك سبب آخر يدفع الإنسان للعُفْران، فالعُفْران هو عطية - أنه رحمة. إنها عطية حصلت عليها ويُمكنني أن أقدمها للآخرين. وفي كلّ الحالات أشعر بالرضا التام.

وفي الأيام التالية لهذا الاجتماع بدأ "كريس" في زيارة "دافيد" بصفة مُنتظمة مع زوجته وابنتيه. وقضى الرجلان ساعات طويلة معا في الحديث وذابت قسوة الرجل العجوز بالتدرّج. وفي أحد الأمسيات بعد ثلاثة أسابيع من تلك الحادثة، وبعد أن أودع "كريس" صديقه المريض إلى الفراش لينام، مات "دافيد".

تُظهر لنا قصص "جوردون" و"كريس" و"سيتين" التناقض في السرّ الذي نُطلق عليه "العُفْران". فيرى الكثيرون منّا أنّه من الصعب أن تتخلّى حتى عن الضغائن الصغيرة. ولكن هؤلاء الرجال الثلاثة الذين عانوا أكثر بكثير من أسوأ كوابيسهم، استطاعوا أن يغفروا بسهولة عجيبة. ورُبّما لا يكون هذا بسبب طبيعتهم، ولكنّه يرجع إلى قُوّة أكبر منهم. وفي النهاية استمدّ هؤلاء الرجال قُوّتهم للعُفْران من إيمانهم بالله، لا من بحثهم عن السلام فقط.

إنهاء دوامة الحقد

إذا كانت المسألة مجرد مسألة وجود بعض الأشرار الذين يقتربون الأفعال الشريرة في مكان معين فسيكون من الضروري إذن عزلهم عننا والقضاء عليهم. إلا أن الخط الفاصل ما بين الخير والشر يتغلغل داخل قلب كل إنسان منا. فمن منا تراه راغب في القضاء على جزء من قلبه؟

ألكسندر سولزهنيتسين Aleksander Solzhenitsyn

لقد تعلمنا كأطفال الكلمات المألوفة في الصلاة الربانية والتي تُعزِّي كثيرين منا بصفة خاصة في الأوقات الصعبة أو أوقات الأزمات: "وأغفر لنا ذُنُوبَنَا كَمَا نَعْفِرُ نَحْنُ أَيْضاً لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا." ولكن ما مدى الجدِّية التي تتعامل بها مع تلك الرسالة التي تحملها هذه الكلمات: بأن نجد القُوَّة لنغفر، عندما نُدرك احتياجنا الشخصي لعُفْران ذنوبنا؟ ولا يأتي لنا مثل هذا الإدراك بسهولة. فقد يبدو أنه من الأسلم أن تتمسك ببرنا الذاتي!

أخبرنا يسوع المسيح بالقصة التالية ليوضح لنا معنى هذه الكلمات في الصلاة الربانية:

أَرَادَ مَلِكاً أَنْ يُجَاسِبَ عَبِيدَهُ. فَلَمَّا ابْتَدَأَ فِي الْمَحَاسَبَةِ قَدَّمَ إِلَيْهِ وَاحِدَ مَدْيُونٍ بَعَشْرَةَ آلَافٍ وَزَنْةً. وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُوفِي أَمْرَ سَيِّدِهِ أَنْ يُبَاعَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَأَوْلَادُهُ وَكُلُّ مَا لَهُ وَيُوفَى الدَّيْنَ. فَخَرَّ الْعَبْدُ وَسَجَدَ لَهُ قَائِلاً: يَا سَيِّدُ مَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيكَ الْجَمِيعَ. فَتَحَنَّنَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْعَبْدِ وَأَطْلَقَهُ وَتَرَكَ لَهُ الدَّيْنَ. وَلَمَّا خَرَجَ ذَلِكَ الْعَبْدُ وَجَدَ وَاحِداً مِنَ الْعَبِيدِ رُفْقَانِهِ كَانَ مَدْيُوناً لَهُ مِئَةَ دِينَارٍ فَأَمْسَكَهُ وَأَخَذَ بِعُنُقِهِ قَائِلاً: أُوْفِي مَا لِي عَلَيْكَ. فَخَرَّ الْعَبْدُ رَفِيقَهُ عَلَى قَدَمَيْهِ وَطَلَبَ إِلَيْهِ قَائِلاً: مَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيكَ الْجَمِيعَ. فَلَمْ يَرُدْ بَلْ مَضَى وَالْقَاهُ فِي سِجْنٍ حَتَّى يُوفَى الدَّيْنَ. فَلَمَّا رَأَى الْعَبِيدُ رُفْقَاؤَهُ مَا كَانَ حَزَنُوا جِداً. وَأَتَوْا وَقَصُّوا عَلَى سَيِّدِهِمْ كُلِّ مَا جَرَى. فَدَعَاهُ حِينئذٍ سَيِّدُهُ وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْعَبْدُ الشَّرِيرُ كُلُّ ذَلِكَ الدَّيْنِ تَرَكَتَهُ لَكَ لِأَنَّكَ طَلَبْتَ إِلَيَّ.

أَفَمَا كَانَ يُبَغِّي أَنَّكَ أَنْتَ أَيْضاً تَرْحَمُ الْعَبْدَ رَفِيقَكَ كَمَا رَحِمْتُكَ أَنَا؟. وَعَضِبَ سَيِّدُهُ وَسَلَّمَهُ إِلَى الْمُعَذِّبِينَ حَتَّى يُوفِّي كُلَّ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ (متى 18: 23-34).

من أقوى الدوافع للعُفْران هو تجربتنا الشخصية عندما يُغفر لنا، وإدراكنا لحاجتنا إلى العُفْران عن الأخطاء التي ارتكبتها في حق الآخرين.

يُخبرنا "جيرد Jared" أحد طلبة الجامعة وهو أمريكي من أصل أفريقي من ولاية بوسطن الأمريكية بقصة صراعه مع العُفْران قائلاً:

كُنْتُ فِي السَادِسَةِ مِنْ عُمْرِي عِنْدَمَا اصْطَدَمْتُ مَعَ حَقِيقَةِ الْعُنْصَرِيَّةِ. فَقَدْ دُفِعَ بِي مِنَ الْبَيْتَةِ الْأَمْنَةِ فِي مَنْزِلِي إِلَى الْعَالَمِ فِي الْمَدْرَسَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ الَّتِي تَقَعُ عَلَى قَارِعَةِ الشَّارِعِ الَّتِي أَقْطَنُ فِيهَا. ذَهَبْتُ لِنَتِكَ الْمَدْرَسَةِ لِمُدَّةِ شَهْرٍ قَبْلَ أَنْ تُصَدَرَ الْمَدِينَةُ قَانُونًا يُجْتَمِعُ عَلَيَّ الْإِتِّقَالَ إِلَى مَدْرَسَةٍ أُخْرَى فِي الْجِهَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ. وَلَمْ يَسْعُدْ أَبُوَائِي بِهَذَا الْقَانُونِ، فَقَدْ أَرَادَا لِي الذَّهَابَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ الَّتِي أَكُونُ فِيهَا مَعْرُوفًا وَمُحِبُّوبًا. وَكَانَا يَمْتَلِكَانِ مَزْرَعَةً فِي الْقَرْيَةِ، لِهَذَا انْتَقَلْنَا إِلَيْهَا...

كَانَ وَالِدِي مُنَاضِلًا فِي حَرَكَةِ الدِّفَاعِ عَنِ الْحُقُوقِ الْمَدِينِيَّةِ لِلْأَفْرَاقَةِ الْأَمْرِيكَانِ، وَعَلَّمْنَا أَنْ نُحِبَّ الْجَمِيعَ وَنُحْرَمَهُمْ سِوَاءَ كَانُوا بِيضًا أَمْ سُودًا. لَمْ أُدْرِكْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الصَّرَاحَ الْعُنْصَرِيَّ. وَكُنْتُ الطِّفْلَ الْوَحِيدَ الْأَسْوَدَ فِي الْمَدْرَسَةِ، وَكَانَ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ كَثِيرِينَ مِنَ الْأَطْفَالِ الْآخَرِينَ تَعَلَّمُوا أَنْ يَكْرَهُوا. فَالْأَطْفَالُ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونُوا قُسَاةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْفُرُوقِ الَّتِي يُلَاحِظُونَهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْآخَرِينَ. فَيَبْدُءُونَ بِسُؤَالِ بَرِيءٍ: لِمَاذَا لَوْ بَشَرْتِكِ بُرِّي؟ وَبَعْدَهَا يَضْحَكُونَ وَيَسْخَرُونَ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْبَشَرَةَ الْبُنْيَةَ شَيْءٌ مُخْتَلَفٌ إِلَى حَدِّ مَا، فِي مَرِحَلَةٍ مَا تَعَلَّمُوا أَنَّ هَذَا اللَّوْنُ لَيْسَ "طَبِيعِيًّا".

شَعَرْتُ بِأَنَّي لَسْتُ فِي الْمَكَانِ السَّلِيمِ. وَكَأَنِّي سَمَكَةٌ تَخْرُجُ مِنَ الْمَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ هُوَئِلَاءَ الْأَطْفَالِ يَتَعَامَلُونَ مَعِي بِطَرِيقَةٍ سَلْسَلَةٍ. وَأَتَذَكَّرُ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ حَادِثَةٍ أَثَّرَتْ فِيَّ لِلْغَايَةِ. فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، عِنْدَمَا قَدَّمْتُ صَدِيقًا أَبْيَضًا لِي لَصَدِيقٍ أَبْيَضٍ آخَرَ فِي الْأَتُوبِيْسِ، صَارَا هَذَانِ الصَّدِيقَانِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعًا وَتَرَكَانِي.

ثُمَّ عِنْدَمَا كُنْتُ فِي الصَّفِّ السَّابِعِ فِي الْمَدِينَةِ، كَانَ هُنَاكَ طِفْلٌ وَاحِدٌ أَبْيَضٌ فِي فَصْلِي يُدْعَى "شُون" وَهُوَ الطِّفْلُ الْوَحِيدُ الْأَبْيَضُ فِي الْمَدْرَسَةِ كُلِّهَا. فَكُنَّا نَعَامَلُهُ كَالْمَنْبُودِ وَكُنَّا نَسْخَرُ مِنْهُ وَنَلْقَبُهُ بِكَلِمَاتٍ عُنْصَرِيَّةٍ غَيْرِ لَائِقَةٍ وَنَعْتَدِي عَلَيْهِ بِالضَّرْبِ. إِذْ تَخَلَّصَ مِنْ مَشَاعِرِ الْكِرَاهِيَةِ الَّتِي نَحْمِلُهَا نَحْوَ الْبَيْضِ فِي "شُون". وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ أَيَّ شَيْءٍ لَنَا، إِلَّا أَنَّنَا كُنَّا نَشْعُرُ بِالْغَضَبِ الشَّدِيدِ تَجَاهَهُ. فَقَدْ كَانَ يُمَثِّلُ كُلَّ مَا نَعْرِفُهُ عَنِ الْبَيْضِ وَتَارِيخِهِمْ لِإِذْلَالِ شَعْبِنَا، وَالْقَتْلِ وَالْإِجْرَامِ وَتِجَارَةِ الْعَبِيدِ، فَأَخْرَجْنَا كُلَّ الْبَغْضِ وَالْغَضَبِ عَلَى هَذَا الصَّبِيِّ.

والآن، أستطيع أن أرى أنّ ما فعلناه في "شون" كان خطأ. وقد كُتِّبَ بهذا عُصْرِيَّين، وهو الشيء الذي كرهناه في البيض. وما زلت حتى هذا اليوم أطلب العُفْران عن الألم الذي تسببتُ فيه لـ "شون". وأطلب أيضاً العُفْران لهؤلاء الأطفال الذين لم تعرف قلوبهم كيف يُجَبُّونني عندما كنت الطفل الوحيد الأسود في وسطهم.

"هيليا إيرليتش Hela Ehrlich" واحدة من أفراد جماعة المجتمع الأخوي وهي من أصل يهودي، نشأت في ألمانيا النازية. ونجحت عائلتها في الهجرة قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بوقت قليل، وبالتالي نجت من مُعتقلات الموت. ولكنهم مروا بالكثير من المتاعب. فقد توفِّي والدها ولم يكن عمره سوى 42 عاماً وفقدت "هيليا" كلَّ أجدادها من ناحيتي الأب والأم، بالإضافة إلى جميع أصدقاء الطفولة في الهولوكوست (مخارق اليهود في ألمانيا).

وتحكي صراعها الطويل مع البغض والاستياء وعدم رغبتها المُستمرة في العُفْران، والتي فَطَّنت له في أحد الأيام أثناء اجتماع ضم جميع أفراد المُجتمع الأخوي. فأسمعوها تقول ما أحسست به إثناء ذلك الاجتماع:

جلستُ مُرتعدة، وأثناء جلوسي تجلّى الأمر لي بأنني لو نظرت إلى قلبي لوجدت بذور الكراهية فيه أيضاً. وأدركت أنّ بذور الكراهية موجودة في كلِّ إنسان. فأفكار الانتقام ومشاعر السخط وبرود القلب نحو الآخرين و الغضب والحسد وحتى عدم الاكتراث بآلام الآخرين – هي بالحقيقة الجذور نفسها لتلك المجازر التي حدثت في ألمانيا النازية. وهنا أدركتُ ولأوّل مرّة، أكثر من أيّ وقت مضى، حاجتي الماسّة إلى العُفْران وأخيراً شعرت بالتحرّر الكامل.

"جوزيف بن إيعازر Josef Ben-Eliezer" وهو فرد آخر في مجتمعا الأخوي وهو من أسرة يهودية وُلد في عام 1929 في فرانكفورت بألمانيا من أبوين يهوديين من أوروبا الشرقية. وقد هاجر والداه من بولندا مثلهم مثل آلاف آخرين للهروب من الاضطهاد والفقر. إلا أنّهم لم يُنجو من أيّ منهما. فيقول جوزيف:

تقابلتُ لأول مرّة مع مُعادين السامية عندما كُنْتُ في الثالثة من عُمرِي أثناء مُراقبتنا لرتل من شباب هتلر وهم يَمُرُّون من أمام نافذة منزلنا في الشارع الشرقي *Ostendstrasse* وهم يُعَنُّون أغنية حتى أنا فهمت معناها في ذلك الوقت. كانت تقول "عندما تسيل دماء اليهود من خناجرنا....."، وما زلت أذكر الرُعب الذي كان يظهر على وجه والديّ.

وسرعان ما قرّرت عائلتنا ترك البلد. وفي نهاية عام 1933 عُدنا ثانية إلى مدينة روزفادوف في بولندا المُظلمة على نهر سان. وكان مُعظم سُكّانها من اليهود الذين يعملون كحرفيين، وخبّاطين، ونجّارين ونجّار. وكان هناك فقرٌ شديدٌ ولكن بالرُّغم من هذا الفقر الشديد كُنّا نُعتبر من الطبقة الميسورة، وعشنا في روزفادوف طوال الستّة أعوام التالية.

وفي عام 1939 بدأت الحرب، وفي غضون أسابيع دخل الألمان إلى مدينتنا. واختبأ أبي وأخي الأكبر في العليّة العليا، وكُنّا عندما يقرع أحد على الباب ويسأل عنهما نُخبره بأنّهما ليسا بالمنزل. وجاء الإعلان العام الرهيب بأنّ كلّ اليهود عليهم أن يجتمعوا في الميدان الرئيسيّ بالمدينة. وأُعطيت لنا مُهلة ساعات قليلة فقط. فأخذنا ما استطعنا حمله - مجرد وضعناه في صُرة لتتمكّن من حمله على ظهورنا. ومن الميدان أُجبرنا جنود قوات ال SS للسير على الأقدام باتجاه نهر سان، والذي كان يبعد عدة أميال عن القرية. وكان الرجالُ المُجنّدين يرتدون الزيّ العسكريّ ويركبون الدراجات البخاريّة من على جانبيّ الطريق. ولن أنسى كيف توقّف أحدهم وصرخ فينا لكي نُسرّع، ثم توجّه ناحية والدي وضربه.

وعند ضفّة النهر، كان هناك جنود آخريّن بزِيهم الرسميّ ينتظروننا. فقاموا بتفتيشنا بحثاً عن الأشياء الثمينة من مال أو مجوهرات أو ساعات. (ولم يجدوا المبلغ الذي أخفاه والدي في ملابس أُختي الصغيرة). ثم أمرونا أن نعبّر النهر إلى أرض ليس فيها إنسان. ولم يُخبرنا أحد بما يجب أن نفعله، لهذا وجدنا مأوى في قرية عبر النهر.

وبعد عدّة أيّام سمعنا فجأة أنّ هذه المنطقة سيحتلّها الألمان أيضاً. فانتابنا الدُعر واشترى والديّ بالأموال التي أخفوها ومنتشاركين مع عائلتين أو ثلاثة حُصانا وعربة لكي تحمل الأطفال الصغار والأشياء القليلة التي حملناها على ظهورنا.

واتجهنا شرقاً إلى روسيا أملاً في الوصول إلى الحدود قبل حلول الظلام، ولكننا وجدنا أنفسنا في غابة كبيرة عندما حلّ الظلام. وهناك هاجمنا رجال مسلّحون وطلبوا أن نُعطيهم كلّ ما نملك. كانت لحظات مُرعبة ولكن كان هناك بعض الرجال في مجموعتنا ممن كانت لديهم الشجاعة لمقاومتهم. وفي النهاية رحل الرجال آخذين درّاجة وأشياء أُخرى صغيرة.

قضت أسرة "جوزيف" سنوات الحرب في سيبيريا. ونجح "جوزيف" بأعجوبة في الهروب إلى فلسطين عام 1943، وبعد الحرب تقابل مع يهود نجوا من مُعسكرات الإبادة. يقول جوزيف:

لقد بدأت الدفعات الأولى من الأطفال الذين تمّ تحريرهم من معسكري الإبادة Bergen-Belsen و Buchen-wald الألمانين في الوصول إلى فلسطين في عام 1945. وارتعبتُ ممّا سمعته من هؤلاء الصبيان الذين بالرغم من أنّهم لم يتجاوزوا سنّ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، إلا أنّهم كانوا قد مرّوا بأحداث رهيبية. وكان مظهرهم يشبه العجزة. وشعرتُ بالاشمئزاز والإحباط.

صارعت مع موضوع الاحتلال البريطاني للبلد طوال الثلاث سنوات التالية. وامتلأت بالكراهية نحو البريطانيين وخاصة بعدما بدءوا في وضع قيود على هجرة الناجين من الهولوكوست إلى فلسطين. وقلنا إننا نحن اليهود لن نسير مرة أخرى مثل الغنم للذبح، على الأقل ليس بدون قتال ضارٍ. وشعرنا أننا نعيش في عالم من الوحوش، وأننا يجب أن نكون مثل الوحوش حتى نستطيع أن نحيا في العالم. وعندما انتهت الوصاية البريطانية على فلسطين، دارت حروب أكثر بين اليهود والعرب من أجل الأرض. والتحقت بالجيش لأنني كنت مُقتنعاً أنه لا يمكن أن أسمح لنفسي بالاستمرار بأن أسحق بالأقدام...

وأثناء حملتنا على رام الله واللد، أمرت كتبتي الفلسطينيين أن يتركوا بيوتهم خلال ساعات. ولم نسمح لهم أن يرحلوا بسلام ولكننا سكبنا غضبنا عليهم. فضربناهم وعاملناهم بقسوة. ولقي بعضهم حتفه. ولم تكن لدينا أوامر بفعل هذا، ولكننا فعلنا هذا من تلقاء أنفسنا. فقد أطلقنا العنان لأدنى غرائزنا.

وفجأة، لمعت أمام عيني طفولتي في وقت الحرب في بولندا. واستعدت في ذهني خبرتي كطفل في العاشرة من عمره يُبعد عن بلدته. والآن أمامي هؤلاء الناس - رجال ونساء وأطفال - يهربون بكل ما يمكنهم أن يحملوه. والخوف في عيونهم، خوف أعرفه أنا جيداً. شعرت بألم عميق، ولكنني كنت تحت الأوامر، واستمررت في البحث عن أشياء قيّمة. وعلمت أنني لم أعد ضحية، ولكني الآن أملك القوة والنفوذ.

ترك "جوزيف" الجيش ولكنه ما زال غير سعيد. ترك اليهودية، وترك الدين برُمته، وحاول أن يعطي معنى للعالم من خلال تفسير شروره بالمنطق. ولكن لم ينجح الأمر معه. وفي نهاية المطاف جاء إلى جماعة المجتمع الأخوي، فقال:

هنا اخترت لأول مرة حقيقة العُقران. وأسأل نفسي: "كيف لا يُمكنني أن أغفر للآخرين على الرُغم من أنني أنا نفسي بحاجة إلى الكثير من العُقران مرة بعد أخرى؟" وفوق كل شيء، فإنني كلي أمل بأنه في يوم من الأيام سيمتلئ الناس في كافة أنحاء العالم بنفس الروح التي خلصتني.

كان لكل من "جيرد" و"هيل" و"جوزيف" أسباباً مُقنعة لعدم العُقران لأعدائهم. فمن وجهة النظر البشرية كانوا أبرياء. إذ كانت الأعباء التي يحملونها نتيجة لكراهية الآخرين لهم وليس كراهيتهم للآخرين. ولهذا كان لهم كل الحق في أن يشعروا بالمشاعر التي شعروا بها.

لا أحاول للحظة أن أقول إنَّ الغُفران سهل خاصّة لهؤلاء الذين ذبحوا عائلتك وأصدقائك وجيرانك، ولكن من خبرتي كراعٍ كنسي وكُمشير أن أقول إنَّ هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يغفروا سيظلُّ مُضطهدين ضحايا لهم بعدما ينتهي الخطر أو الألم الجسديّ.

والأكثر من ذلك أن بإمكان "جيرد" و"هيللا" و"جوزيف" أن يُنْهوا دوامة الكراهية بالغُفران بالرغم من أنَّهم أنفسهم عانوا كثيراً. فاستطاعوا أن يتحرّروا من مشاعر الرُعب التي انتابهم في الماضي.

باركوا الذين يضطهدونكم

يقف الإنسان في حيرة من أمره أمام بعض المسائل - بالأخص أمام ما نشهده من خطايا البشر - ويتساءل: هل يجب أن أستخدم القوّة أم المحبّة المتواضعة؟ ... قرّر دائماً استخدام المحبة المتواضعة! ... وإن صممت أن تفعل ذلك مرّة واحدة وللأبد، فربّما ستخضع العالم كله لك. فالمحبّة المتواضعة قويّة للغاية، ومن أقوى الأشياء، ولا يوجد شيء مثلها.

فيودور دوستويفسكي Fyodor Dostoevsky

قَالَ يسوع المسيح في الموعظة على الجبل إنّه يجب أن نُحِبَّ أعداءنا - وبالحقيقة أنه قال إنّه يجب أن "نُبارك" الذين يضطهدوننا. ولم تكن هذه مجرد نظريّة، ولكنّه مبدأ أظهره يسوع بوضوح في كلماته على الصليب حين قال: " يَا أَبَتَاهُ اغْفِرْ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ." وصلّى اسطيّفانوس أوّل شهيد في المسيحيّة صلاة مُشابهة لهذه عندما تعرّضت حياته لنهاية مأساويّة إذ قال: " يا رَبُّ، لا تحسب عليهم هذه الخطيئة! "

يسخر كثيرون من هذه الأفعال ويعتبروها حماقة مُدمّرة للنفس. فكيف لنا أن نُبارك هؤلاء الذين يسعون لإيذائنا أو وضع نهاية لحياتنا؟ عندما أعطيت نسخة من هذا الكتاب قبل طباعته لصديقي "موميا أبو جمال Mumia Abu-Jamal" وهو كاتب الانتقادات اللاذعة من الأميركيين الأفارقة الذي ينتظر تنفيذ حكم الإعدام في ولاية بنسلفانيا الأمريكية، كان ردُّ فعله كما يلي:

من السهل على الناس الذين يعيشون في مكان يشبه الجنة أن يعطوا عن العُقران عندما يكون لديهم ما يكفيهم من الطعام والمزارع والأراضي والبيوت الجميلة والمشروعات التجارية وما إلى ذلك. ولكن هل من العدل أن نقول إن من يعيشون في جُحور من الجحيم - بلا وظيفة ومُهدِّدين بموت وشيك بسبب الجوع - أولئك الذين وصفهم الكاتب "فرانز فانون Frantz Fanon" في كتابه "تعمساء الأرض The Wretched of the Earth"، أن يغفروا لملايين الناس الذين يتمتَّعون بصحة جيِّدة ويدلون بأصواتهم لصالح هذه المجاعة؟ أو التصويت من أجل الحرب؟ أو التصويت لإقامة السجون؟ أو التصويت من أجل استمرار القمع ضدهم؟ هؤلاء الذين يتمنون من صميم قلوبهم لو لم يكن قد وُلدوا في هذا العالم أصلاً؟ فهل سيغفرون لهم على القمع القادم في الطريق؟ وعلى الإبادة الجماعية الآتية؟

من الأشخاص الذين رأوا أنَّهم يجب أن يغفروا كان "مارتن لوثر كنج Martin Luther King, Jr." الذي قال: "ربَّما لا تُوجد وصية من وصايا يسوع يصعبُ تنفيذها مثل تلك الوصية التي تأمُرنا أن نُحبَّ أعداءنا." وقد كتب هذا في كتابه الذي كان من أفضل الكتب بيعاً في عام 1963 بعنوان "القُوَّة لِنُحبَّ".

لقد شعر بعض الناس أنَّ المُمارسة الفعلية لمحبة الأعداء غير ممكنة. فيقولون إنَّه من السهل أن نُحبَّ هؤلاء الذين يُحبُّونك، ولكن كيف يُمكن للمرء أن يُحبَّ هؤلاء الذين علناً وبكامل المكر يسعون لأن يهزموه...؟

وحاشا لوصية محبة الأعداء أن تكون وصية حالم متدين مثالي، بل هي ضرورة حتمية لبقائنا. فالمحبة حتى لأعدائنا تُعتبر مُفتاحاً لحلِّ مُشكلات عالمنا. إنَّ يسوع هو ليس شخص مثالي غير عملي؛ إنه واقعي وعملي...

إنَّ الرد على الكراهية بالكراهية يُضاعف من الكراهية، ويُزيد من سواد الليل الذي هو سلفاً خالٍ من النجوم. فالظلام لا يقدر على طرد الظلام؛ فالنور وحده القادر على ذلك. والكراهية لا تقدر على طرد الكراهية؛ فالمحبة وحدها القادرة على ذلك. فالكراهية تضاعف الكراهية، والعنف يضاعف العنف، والقسوة تضاعف القسوة في دوامة جارفة على طريق الدمار...

إنَّ المحبة هي القُوَّة الوحيدة القادرة على تحويل العدو إلى صديق. فلا يُمكن أن نتخلَّص من أعدائنا عندما نقابل كراهيتهم بكراهية؛ ولكننا نتخلَّص من العدو بالتخلُّص من العداوة. فالكراهية بطبيعتها مُدمِّرة ومُزقة؛ أما المحبة بطبيعتها فتخلق وتبني. فالمحبة تُغيِّر الآخرين بقوة شافية.

لقد كان التزام "كنج" بالمحبة واتخاذها كسلاح سياسيٍّ نابع من إيمانه المسيحي، ولكن كان لديه أيضاً نزعة عملية في تفكيره. فقد عَلِمَ أنَّه وكل زملائه الأمريكيين الأفارقة كان عليهم انتظار النتائج

والعيش لعقود تالية في نفس المنطقة التي كانوا يُقيمون فيها حملاتهم للاعتراف بحقوقهم المدنية، والتي حرّموا منها لمائتي عام بسبب لون بشرتهم، لا غير. فلو سمحوا لأنفسهم بالشعور بالبغض عن المعاملة التي تلقونها، فسيحوّل الأمر إلى عُنف وهذا من شأنه أن يؤدي ببساطة إلى مزيد من البغض والاستياء في المستقبل. وبدلاً من تهديم جدران الحقد العنصري، فسيصير بناءه أعلى. إن المغفرة لظالمهم هي الكفيل الوحيد لتحرير الأمريكيين الأفارقة - وأيضاً الأمريكيين البيض - من "الدوامة الجارفة نحو الدمار". فالعُفران وحده القادر على أن يشير إلى الطريق التي نقودنا إلى مُستقبل أكثر إشراقاً.

يجب أن نُثمي قُدرتنا على العُفران ونُحافظ عليها. فمن يخلو من قُوّة العُفران، يخلو من قُوّة المحبة. ومن المستحيل أن يبدأ الشخص حتى في محبة أعدائه دون قبول مسبق بضرورة العُفران ومساحة الذين يمارسون، الشر والضرر علينا في كل مرة. ومن الضروري أيضاً أن ندرك أنّ العُفران هو فعل يجب أن يبدأه الشخص المظلوم، أو الضحية التي تُعاني من جرح كبير، أو الشخص الذي تلقى ظملاً فظيماً، أو الشخص الذي تحمّل اضطهاداً شنيعاً. وربما يسألكم المعتدي لتغفرون له. ورُبّما يأتون بأنفسهم، مثل الابن المُبذّر (الابن الضال)، من الطريق المليء بالضياع، وقلوبهم تحفق عطشاً للحصول على العُفران. ولكنّ الشخص المجروح والأب المنتظر في البيت هو وحده الذي يستطيع أن يسكب مياه العُفران الدافئة.

والعُفران لا يعني تجاهل ما تمّ اقتراه أو إعطاء تسمية كاذبة لعمل شرير. ولكنّه يعني بالأحرى بأن الشر لا يعود يبقى كعائق في العلاقة. فالعُفران هو المحفّز الذي يخلق المناخ اللازم لبداية جديدة وصفحة جديدة...

نقول لأكثر خصومنا المريرين: "سُقابل قُدرتكم على تعذيبنا بقُدرتنا على تحمّل المُعاناة. وسنعمل على مقابلة قوتكم البدنية بقوة الروح. فافعلوا فينا ما تشاءون، ولكننا سنظلُّ نُحبُّكم. ولا يُمكننا أن نُطيع قوانينكم الظالمة بضمير صالح، لأنّ عدم التعاون مع الشرّ ضرورة أخلاقية تماماً مثلها مثل التعاون مع الخير. ألقوا بنا في السجون، ولكننا سنظلُّ نُحبُّكم. أرسلوا الجناة الملتئمين إلى مُجتمعنا في مُنتصف الليل، اضربونا واطركونا نصف ميّتين، ولكننا سنظلُّ نُحبُّكم. ولكن كُونوا مُتأكّدين من أنكم ستهكون من جراء قُدرتنا على تحمّل الألم. ففي يوم من الأيام سنكسب حُرّيّتنا، ولكن ليس لأجلنا فقط. فسناشد كثيراً قلوبكم وضمائركم بحيث أننا سنكسبكم في هذه العملية، وانتصارنا سيكون نصراً مزدوجاً."

في ربيع عام 1965 خرجتُ في مسيرة مع "مارتن لوثر كنج" في مدينة ماريون بولاية ألاباما، لأشهد بصورة مباشرة محبته القلبية وتواضعه في مواجهة الظلم الفظيع.

كنتُ أزور أصدقاء قدماء في معهد تُسكجي Tuskegee في ولاية ألاباما عندما سمعنا بموت "جيمي لي جاكسون" وهو شابٌ أُطلق عليه الرصاص مُنذُ ثمانية أيّام مضت عندما اخترق رجال الشرطة مُظاهرة في إحدى الكنائس في مدينة ماريون. واندفعت قوات الشرطة المحلية من كل أنحاء مركز ولاية ألاباما لتجتمع في المدينة وضربت المُتظاهرين بالعصي أثناء تدفقهم بالشوارع.

وقد وصف المُتفرجون المشهد بأنّه كان فوضى تامة حيث قام الناس البيض الذين كانوا يتفرجون بتحطيم كاميرات الصحافة وكسر مصابيح الشوارع، في الوقت الذي كانت قُوات الشرطة تهاجم الرجال والنساء بوحشية، واستمرّ بعضهم في الركوع والصلاة على درج كنيستهم. وكانت جريمة "جيمي" أنّه اعترض ضابط الشرطة الذي كان يضرب والدته بلا رحمة. وكان عقابه أن يتمّ إطلاق الرصاص عليه في معدته ويلقى ضربة بالعصا على رأسه ليوشك على الموت. ورفضت المُستشفى المحليّة دخوله، لذلك نُقل إلى مدينة "سيلمة Selma" في ولاية كاليفورنيا حيث استطاع أن يُخبر الصحفيين بقصّته. وقد مات بعد عدّة أيّام.

وفور سماعنا بموت "جيمي" ذهبنا إلى مدينة "سيلمة". وكانت معاينة الفقيد في المُصلّى الصغير لكنيسة منطقة براون حيث كان التابوت مفتوحاً ولكن على الرغم من أنّ الطبيب القانوني بذل قصارى جهده لكي يُخفي جروح جيمي إلاّ أنّه لم يستطع إخفاء الجروح التي في رأسه: فقد كانت هناك ثلاث ضربات قاتلة، كلّ منها بعرض بوصة وبطول ثلاث بوصات أحدها يمرُّ فوق أذنه والأخرى في قاع الجمجمة والأخيرة في أعلى رأسه.

وحضرنا الجنازة هناك بعدما تأثرنا بالموقف بشدّة، حيث كانت الأولى من جنازتين. وكانت القاعة تعجُّ بجوالي ثلاثة آلاف شخص (كثيرون غيرهم كانوا يقفون بالخارج)، أما نحن فجلسنا على عتبة شُباك في الخلف. لم نسمع أي تعليق عن الغضب أو الانتقام في تلك الجنازة، بل انتشرت روح التشجيع بين الحاضرين وبصفة خاصة عندما رمّوا ترنيمة العبيد القديمة: "لن أسمح لشخص أن يُعدني عما أريد Aint gonna let nobody turn me round".

وفيما بعد كان الجوّ السائدُ في كنيسة صهيون النظاميّة (لطائفة النظاميين Methodists) في ماريون أكثر هدوءاً وبكل ما في الكلمة من معنى. فقد كان هناك صفٌّ طويل من قُوات الشرطة المحلية يقفون في ساحة محكمة المدينة في الجهة المقابلة من الشارع، وأيديهم تمسك بعصي ومركزين نظرهم علينا. كانوا هم نفس الرجال الذين هاجموا السود في مدينة ماريون منذ عدة أيام قليلة. وتجمع

جهور البيض في منطقة قريية من المبنى العام للمدينة ولم يكونوا أقل رُعباً. وقد قاموا بمسح كامل للمنطقة بالنواظير والكاميرات وصورونا بالكامل بحيث شعر كل واحد منا بأنه تمّ وضع علامة عليه. وعند المقبرة، تحدث "كنج" عن الغُفران والمحبة. وناشد شعبه أن يُصلوا من أجل رجال الشرطة، وأن يغفروا للقتلة، وأن يغفروا لهؤلاء الذين يضطهدونهم. ثم أمسكنا بعضنا بأيدي بعض ورفنا "سنغلب We shall overcome". كانت لحظات لا يُمكن نسيانها. فإن كان هناك مكان في العالم له جميع الدواعي ليحقد وينتقم فسيكون هذا المكان. غير أننا لم نحسّ مطلقاً بشيء من هذا القبيل ولا حتى من طرف أهل "جيمي".

كان الذهاب إلى "سيلمة" مخفوفاً بالمخاطر فبعد أربعة أيام فقط من الجنازة تواجعت الشرطة الخيالة مع متظاهرين كانوا في طريقهم إلى مدينة مونتجمري واستعملوا الغازات المسيلة للدموع حيث اندفعوا بخيلهم نحو المتظاهرين وأسقطوهم أرضاً وضربوهم بلا رحمة. وبعد مُضيّ يومين من هذا الحادث تعرّض قسيس أبيض "جيمس ريب" من مدينة بوسطن للضرب في مركز مدينة "سيلمة"، ومات متأثراً بجراحه بعد يومين. وخلال الثلاثة أسابيع التالية لقت "فيولا ليوزو" وهي سيّدة بيضاء من مدينة ديرويت مصرعها بطلق ناريّ عندما كانت تُقلُّ رجلاً أسود من مظاهرة. (لقد فعلنا نحن أيضاً الأمر نفسه قبل أسبوع واحد فقط من تلك الحادثة، عندما أوصلنا ثلاثة سيدات كُنَّ بحاجة إلى وسيلة مواصلات تُقلهنّ إلى ماريون.)

بعد عدّة سنوات تأثرت بشدّة عندما قرأت عن عُفران أولاد مدارس "سيلمة" في نفس تلك الأيام من فبراير ومارس 1965. فقد نظم التلاميذ مسيرة سلميّة بعد انتهاء دوام المدرسة وإذا بمأمور البلدة السيئ السمعة "كلارك" يصل. وبدأ هو وتابعيه في دفع التلاميذ ونخسهم، وحالاً أُجبر التلاميذ على الركض باتجاه معين. فاعتقد الفتيان والفتيات في البداية أنّ رجال الشرطة يدفعونهم إلى توقيف البلدية لحجزهم، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أنّهم مُتجهين إلى مُعسكر السجن على بُعد خمسة أميال من المدينة. ولم يهدأ رجال الشرطة إلا عندما أخذ الأولاد بالتقيؤ. وفيما بعد ادّعت الشرطة أنّها أرادت أن تنهك "حمى المظاهرات" في "سيلمة" للتخلص منها للأبد.

بعد عدّة أيّام من تلك الحادثة نُقل المأمور "كلارك" إلى المستشفى بسبب إصابته بآلام في الصدر. والأمر الذي لا يُمكن تصديقه هو أن أولاد المدارس في "سيلمة" نظّموا مظاهرة ثانية خارج المحكمة وهذه المرّة مرتلين الصلوات ورافعين لافتات تدعو للشفاء العاجل.

لاحظ "روبرت كولس Robert Coles" وهو طبيب نفسي للأطفال مشهور في أمريكا موقف التسامح العجيب ذاته لدى الأولاد عندما عمل في مستشفى نيو أورليانز في عام 1960. فقد عارض الأهالي البيض علناً قرار المحكمة الفيدرالية الخاص بإلزام مدارس المدن إنهاء الفصل العنصري فيها، ولم يكتفوا بسحب أولادهم من أية مدرسة تسمح بوجود طالب أسود فحسب بل حتى صاروا يرابضون أمام المدارس ليمنعواهم من الدخول إليها.

كانت هناك طفلة في السادسة من عمرها تدعى "روبي بريدج" وكانت هي الطفلة الوحيدة الأمريكية من أصل أفريقي في مدرستها. ولأسابيع طويلة كان عليها دخول المدرسة في حراسة الحرس الفيدرالي. وفي أحد الأيام رأتها المعلمة وهي تُتمتم بكلمات من فمها حين كانت تعبر صفوف الآباء البيض الغاضبين، وعندما ذكرت المدرسة ذلك أمام "كولس" انتابه الفضول قائلاً: "ما الذي كانت تقول؟"

وعندما سألها أجابت "روبي" أنها كانت تُصلي من أجل الآباء البيض، فاندعش "كولس" وسألها باستغراب: "ولماذا تُصلي لهم؟" فأجابت: "لأنهم بحاجة لمن يُصلي لأجلهم" فقد سمعت في الكنيسة كلمات يسوع وهو يموت على الصليب قائلاً: "يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون"، وقد اخترقت هذه الكلمات قلبها. رأى "كولس" "روبي بريدج" ومن مثلها على أنها بدور ولادة أمريكا الجديدة.

سمعت قبل مدة من "جيمس كريستensen James Christensen" وهو أحد معارفي الذي هو رئيس دير "Trappist monastery" الذين يمتنعون عن الكلام في روما، قصّة عجيبة عن العُفران. ففي عام 1996 اختطفت مجموعة من المسلمين الأصوليين في الجزائر - الجماعة الإسلامية المسلحة G.I.A - سبعة من زملاء "جيمس" الرهبان في جبال أطلس وهددت بأن تحتجزهم كرهائن حتى تُطلق فرنسا عدداً من رفاقهم المسجونين. وعندما رفضت الحكومة الفرنسية، ذبحت تلك الجماعة الرهبان.

ارتعبت فرنسا كلها كنتيجة لذلك، وأطلقت كل كنائس فرنسا الكاثوليكية - وعددها 40000 كنيسة - أجراسها في نفس الوقت ذكرى لهؤلاء الرهبان. إلا أن ما أثر فعلاً في هذه المأساة شيء مختلف تماماً وقعت ظلالة منذ عامين، فقبل المذبحة الجزائرية هَجَسَ "كريستيان دي تشرجي Christian de Chorge"، وهو رئيس دير الرهبان الجزائري، هَجَسَ هاجساً غريباً من أنه سيموت

ميتة عنيفة، وكتب خطاب عُفران لمُغتاليه مُسبقاً. وختم الخطاب وتركه مع والدته في فرنسا. ولم يُكتشف الخطاب إلا بعد موته، وفيما يلي جزء منه:

إن كان عليّ أن أصبح في يوم من الأيام - وربّما اليوم - ضحية للإرهاب الذي يبدو أنه يستهدف كلّ الأجانب الذين يعيشون في الجزائر، فأودُّ أن يتذكّر المُجتمع الذي أعيش فيه وكنيستي وعائلي أن حياتي قد قدمتها لله وللجزائر؛ وأن يُسلّموا بأن سيد الحياة الوحيد لم يكن غافلاً عن هذا الرحيل الفطيع.

عندما يأتي الوقت أودُّ أن تُتاح لي الفرصة لكي أطلب العُفران من الله لي ولأتباعي في البشريّة، ولأن أغفر من كلّ قلبي للشخص الذي سيقتلني.

لم أرغب في ميتة كهذه. فيبدو لي أنّه من الضروري أن اذكر ذلك - فكيف سأفرح إذا اتهم الشعب الجزائريّ الذي أحبّه بقتلي؟

أشكر الله على هذه الحياة المفقودة التي أبدلها في سبيل الآخرين كما أوصانا، وفي شكري هذا، والذي أقدمه لكلّ شيء يحدث في حياتي من الآن فصاعداً، فأنا بالتأكيد... أودُّ أن أشمك هنا في صلاتي يا صديق لحظاتي الأخيرة لأنك لا تعلم ماذا تفعل... وأسلّمك لله الذي أراك في وجهه. ولعل بعضنا يجد بعضاً، يا أيها "الصوص الطيبين" الفرحين في السماء، إن كان هذا يُسعد الله، أبانا أجمعين.

ومن الواضح أنّ رئيس الدير هذا مع إخوانه الرهبان لم يكونوا مجرد رجال شجعان ليقبلوا مثل هذا الموت. فهناك كثيرون من أمثالهم. إذ امتلأ هؤلاء الرجال بروح التواضع النادرة ومُحبة عُفرانية والتي لا يُمكن أن نصفها إلا بأنها مُشابهة لروح المسيح.

تحتاج أماكن عديدة في هذه الأرض إلى المصالحة مثلها مثل إسرائيل. في عام 1988 سافرت لأوّل مرة إلى تلك الأرض التي مرّقتها الحروب حيث قابلت إلياس شقور وهو كاهن ملكي (من طائفة الملكيين الكاثوليكين) وناشط فلسطينيّ عمل لسنوات طويلة بلا كلل من أجل السلام. واستمرت صداقتنا حتّى هذا اليوم، وقد زار إلياس مجتمعاتنا الأخوية مرّتين.

يمكن أن يتوقع الكثيرون ويبرروا امتلاء صدره بالبغض والحقد. فهو "إنسان بلا بلد" فمنذ أن دُمرت قريته في عام 1947، ودخل السجن لأكثر من مرّة وتحمّل سنوات من القسوة والاعتداء على أيدي الحكومة الإسرائيليّة. ولكنّه واحداً من أكثر الناس الذين عرفتهم مملوءين بالحرارة والتواضع والحنان. فعلى الرُغم من أنّه فلسطينيّ مُشرّد إلا أنّه ما زال مُقتنعاً طوال الوقت بفكرة، "أن اليهود

يستحقون وطناً، لا لأنهم يهود، ولكن لأنهم بشر." وفي زيارته الأخيرة لمجتمعنا الأخوي "دارفل Darvell" في بريطانيا ذكرنا قائلاً:

إن امتلاً قلبي بالعُفران لليهود وللصهيونيين، وللجنود الذي كسروا عظام أخي وسجنوا أبي - سيكون بمقدوري وقتها الذهاب إلى ذلك اليهودي لأخبره بالحقّ وجهاً لوجه، وسيشعر أنني أحبُّه، على الرُّغم من أنني أكره ظلمه... وسأفضل أن أدعوه إلى الاهتداء بدلاً من تغيير الأدوار وأصير أنا الظالم - حاشا!

والكاهن الفلسطيني المعروف، نعيم عتيق من كاتدرائية القديس جورج في القدس له النظرة نفسها. فقد تعلّم العُفران من أبيه الذي فقد كل شيء بسبب الجيش الإسرائيلي في عام 1948. فيقول:

عندما يحقد الناس على الآخرين، تبتلعهم قوة الحقد وتستهلكهم بالكامل... لذلك واصل مقاومة الشعور بالكراهية والحقد. فأحياناً سيكون لك اليد العليا، وأحياناً أخرى ستشعر بأنك انهزمت. وعلى الرُّغم من أنّ هذا أمراً صعباً للغاية، لكن لا تسمح للكراهية أن تتغلّب عليك... لا تكفّ عن محاولة العيش بوضيعة المحبّة والعُفران.

ولا تخفف من القوّة الكامنة في رسالة يسوع: فلا تتجنبها، ولا تصرف النظر عنها على أنّها كلمات غير واقعية وغير عمليّة. ولا تُحاول أن تُكيّفها مع وضعك مُحاولاً أن تجعلها أكثر إمكانيّة للتطبيق في الحياة العمليّة. لا تغيّرّها لتجعلها تناسبك. لكن احتفظ بها كما هي، وتلهف عليها وتشوّق لها، واعمل مع الله من أجل تحقيقها.

وبشارة عوض، مثله مثل الكثيرين في جهتي الصراع العربي - الإسرائيلي، قد نال نصيبه من الظلم. وهو أحد معارفي الفلسطينيين. فقد أخبرني حديثاً عن صراعه الذي استمر طوال حياته ليغفر:

في عام 1948 مات آلاف الفلسطينيين في الحرب الفظيعة التي قامت بين العرب والمُستوطنين اليهود وتشرّد الكثيرون. ولم تسلم عائلتنا من هذه الحرب. فقد قُتل والدي برصاصة طائشة، ولم يكن هناك مكانٌ يليق بدفنه. فالجميع كان يخشون أن يتّركوا تلك المنطقة خوفاً من أن يصيهم الرمي من كلا الجانبين، ولم يكن هناك كاهن أو قسٌّ ليُصليّ عليه. لهذا قرأت لنا أمي من الكتاب المُقدّس ودفن الرجال الذين كانوا موجودين أبي في ساحة الدار. فلم تكن هناك وسيلة لكي يأخذه إلى المقابر العاديّة في المدينة.

وأصبحت أُمِّي أرملة في سنِّ التاسعة والعشرين، ولديها سبعة أطفال. وكُنْتُ في ذلك الوقت في التاسعة من عمري. ولعدَّة أسابيع حاصرنا النيران ولم نستطع أن نتركْ عُرْفَةَ السرداب. وفي إحدى الليالي دفعنا الجيش الأردنيُّ للهروب إلى المدينة القديمة. وكانت هذه هي المرَّة الأخيرة التي رأيت فيها منزلنا وأثاثنا. وهربنا بملابسنا على ظهورنا وكان بعضنا يرتدي ملابس النوم فقط... وفي المدينة القديمة كُنَّا لاجئين. فوضعونا في مخزن للنفط وبلا أثاث. وأعطتنا أسرة مُسلمة بعض البطانيات وشيئاً من الطعام. كانت الحياة قاسية للغاية؛ وما زلت أتذكر الليالي التي كُنَّا نذهب فيها للنوم بلا أكل.

وأخذت أُمِّي تدرس التمريض، وحصلت على وظيفة في المستشفى بمبلغ 25 دولاراً في الشهر. وكانت تعمل في الليل وتستكمل دراستها أثناء النهار، وتم وضعنا نحن الأطفال في الميتم. وقبلت مدرسة مُسلمة أخواتي البنات أما نحن الصبيان فقد تم وضعنا في منزل سيدة بريطانية. وكان هذا كارثة بالنسبة لي فقد فقدت والدي والآن أخذت من أُمِّي ومن عائلتي. كان يُسمح لنا بزيارة المنزل مرَّة في الشهر، ومكثنا في بيت البنين لمدَّة اثني عشر عاماً. استمرَّت مُعاناتي وإخوتي وثمانين ولدا آخرين، فلم يكن لدينا ما يكفي من طعام، وكان الطعام سيئاً للغاية، وكانت المُعاملة قاسية.

ذهب بشارة عندما بلغ سن الرشد إلى الجامعة في الولايات المُتَّحدة وأصبح مُواطناً أمريكياً. وعاد مرَّة أُخرى إلى إسرائيل وحصل على وظيفة كمُعَلِّم في مدرسة مسيحية. وعندما يتذكر السنين السابقة يقول:

في السنة الأولى شعرتُ بالإحباط، فلم أنجز أيَّ شيء، وشعرت بالهزيمة... فقد كان هناك جبل من الكراهية في داخلي ضد اليهود الظالمين: فقد كان كلُّ تلاميذي فلسطينيين، وجميعهم عانوا بنفس الطريقة التي عانيتُ بها... ولم أستطع مُساعدة تلاميذي بسبب مشاعر الكراهية نفسها التي كانت بداخلي فقد أضمرتها في نفسي منذ طفولتي حتى من دون أن أدري بها. وفي تلك الليلة صلَّيت إلى الله بدموع. وطلبت منه أن يغفر كراهيتي لليهود لأنِّي كُنْتُ قد سمحت للكراهية أن تُسيطر على حياتي. فأخذ الله في تلك الليلة مشاعر الإحباط والكراهية وفُقدان الأمل ووضع مكانها المحبة.

في المجتمع الذي يتم فيه التأكيد على ضرورة الحفاظ على الذات وعلى تشجيع الفردانية، يجري تجنب أعمال المغفرة فيه، إن لم يتم الازدراء بها. فيُنظر إليها كضعف؛ لقد تعلّمنا أن نطالب بحقوقنا ونحميها لا أن نتنازل عنها.

غير أنّ المُحامِية الفلسطينية لحقوق الإنسان رجاء شديد تُفند كل هذا وتقول إنّ يسوع قلب هذا المنطق رأساً على عقب عندما دعا الناس إلى العُفْوان لأعدائهم. فتقول:

تحمل ممارسة العُفْوان الكثير من القوة. فهي تأكيد على كرامة الإنسان لأنّه يملك الوسيلة والقُدرة على العُفْوان... رُبّما يكون من الصعب أن تفهم ذلك، ولكن من وجهة النظر المثاليّة أعتقد إنّهُ إن كانت هُنالك رغبة في إحلال السلام هنا فلا بُدّ أن يكون هُنالك عُفْوان... فيجب أن نغفر للإسرائيليين ما فعلوه فينا.

وحاشا للعُفْوان أن يجعلنا ضعفاء أو عرضة للاعتداء، بل إنّهُ يُقوِّي حياتنا وعملنا. فهو يجلب نهاية إنسانية حقيقية لأصعب المواقف، وذلك لأنّه يسمح لنا أن نترك جانبا مقياس العدالة الإنسانيّة والمُجازاة عن الشرّ بالشر، وأن نختبر السلام الحقيقي للقلب. والأكثر من ذلك، فهو يُوظّف سلسلة من ردود الأفعال الإيجابية التي تأتي بثمار العُفْوان للآخرين أيضا.

الغُفران والعدالة

الحقُّ بلا محبَّة يقتلُ، والمحبَّة بلا حقَّ كذب.

أبرهارد آرنولد Eberhard Arnold

أختبر "شاؤول دوركام Joel Dorkam"، وهو صديق من كيبوتس "تسوبا" في إسرائيل، مصاعب مُشابهة لتلك التي مرَّ بها كلا من "هيلا" و"جوزيف" اللذين تناولنا قصَّتهما في الفصل الثالث، ولكنَّه يُضيف نظرةً مختلفةً إلى حدِّ ما. فقد اعترف "دوركام" بالحاجة إلى الغُفران المُتبادل والثقة المُتبادلة في الزمن المعاصر للصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وباعتباره يهودي فقد تحمَّل المخاطر لكي يُقيم علاقات صداقة مُستمرةً مع الناس الألمانين العاديين. إلا أنَّ العذاب يتملكه حين يفكر بالغُفران للنازيين الذين دمَّروا طفولته وذبحوا أبناء قوميته من اليهود. وتُثير قصَّته سؤالاً قديماً للغاية تفرضه الأجيال التي عانت على مر التاريخ الإنساني، وهذا السؤال هو: "هل الغُفران بلا حدود؟" فلنسمعه يحكي لنا إختباراته:

وُلدتُ في كاسل بألمانيا في عام 1929 وهي سنة الأزمة الاقتصادية الماليَّة التي كان لها آثارها الحاسمة على الشؤون العالميَّة، وكانت السبب الذي أتى بالنازيين إلى السُلطة في ألمانيا. كان أبي يعمل صحفياً وأمِّي مُعلِّمة. وكانت عائلتنا ميسورة الحال، وكُنَّا نعيش حياة سعيدة، حتَّى بدأت سُحب التعصُّب في الظهور.

لم يأخذ أبي مسألة النازيين بجديّة في البداية مثله مثل الكثير من اليهود في كافة أرجاء البلد. فكيف يُمكن أن تسفّط الحضارة الألمانيّة العريقة في هذا الهراء؟ ولكنّ عندما أصبح "هتلر" رئيساً للوزراء نصّح أصدقاء أبي ذوو النوايا الحسنة بترك ألمانيا.

وهكذا كان على أبي أن يترك ألمانيا بلده المحبوب حيث وُلد ونشأ، والتي كان قد حارب لأجلها في الحرب العالميّة الأولى. وبعد مدة قصيرة لحقتُ به أنا وأمي، وجمّع شملنا ثانية في مدينة ستراسبورج Strasbourg الفرنسية. كُنّا قد أخذنا معنا القليل جداً من مُمتلكاتنا. وكانت هذه نهاية للحياة الطبيعيّة التي اعتدنا عليها، وصرنا يهود مُشرّدين رحالة بلا جنسيّة وبلا حقوق.

كان وقتاً مثيراً بالنسبة لي كطفل في الثالثة من عُمره ومليء بحب الاستطلاع. فقد تعلّمتُ سريعاً عادات جديدة ولُغة جديدة، واتّخذت لي أصدقاء جدد. ولكن بعد مُضيّ عام كان علينا الرحيل مرّة أخرى كلاجئين ألمان، فكانوا يعتبروننا بمثابة تهديد للأمن في المناطق الحدودية. وذهبنا إلى قرية في جبال "الفوسجز Vosges" الفرنسية وكان هذا تغييراً جديداً آخر. فقد كان على أهلي أن يتعلّموا ويكتسبوا مهارات جديدة ولُغة جديدة للتكيّف مع الثقافة المُختلفة جداً، على عكس سبل الراحة لأسلوب حياتهم السابقة - وعلاوة على ذلك، كان عليهم أن يكسبوا رزقهم في ظل تلك الظروف الصعبة...

وبعد عام احترق المصنع الذي كانت أمّي تعمل به، ممّا أوجب علينا الانتقال هذه المرّة إلى مدينة مارسيليا Marseille الفرنسية الكبيرة. ومرّة أخرى حاول أبواي التأقلم مع الحياة، وكان لهم وجوداً مقلقلًا. فكثيراً ما كُنّا نُغيّر المنزل الذي نعيش فيه، ممّا يعني أنّي كنت مُضطرباً لأن أُغيّر المدرسة والأصدقاء، فلم تُنح لي فرصة قط لتكوين علاقات مُستمرة...

بعدئذ قامت الحرب العالميّة الثانية وانهار كلّ شيء. وأصبحتُ غريباً مرّة أخرى، بل أجنبيّاً... وغزا الجيش الألمانيّ فرنسا واحتلّها، وسريعاً ما قام جهاز "الجيستابو" (الشرطة النازية السرية) بجملات للقبض على اليهود... ومّت مُصادرة شقّتنا ومصلحة عملنا ولكننا اختبأنا بفضل مُساعدة أصدقائنا الفرنسيين.

وأخيراً قرّر أبواي أنّ الأمل الوحيد في نجاتنا هو في الهرب عبر الحدود إلى أسبانيا. في ذلك الوقت كان أبي توّه يتعافى من نوبة جراء مرض التهاب المفاصل، إلا أنه تحتمّ عليه أن يسير عبر سلسلة جبال الپيرينيز Pyrenees مُتّكناً على عُكازين، وأحياناً كان المُهزّب يحمل على ظهره...

وبعد مسيرة ثلاثة أيّام في الجبال المُغطاة بالثلوج، وتوسّلات أبي لنا بأن تتركه ونمضي نحن في طريقنا، أمسك بنا الدرك الأسباني Guardia Civil، وحسّن الحظّ فقد سمحوا لنا بالعبور كما فعلوا مع ما يقرب من 10000 يهوديّ آخر عبروا الحدود بطريقة غير شرعيّة إلى أسبانيا، فلو لم يقبلونا وقاموا بإرجاعنا مرّة أخرى إلى فرنسا لَكُنّا حتماً مُتنا...

تفرّقنا كما هو الحال دائماً عند مركز شرطة مقاطعة جرنده Gerona الأسبانيّة. فتم إرسال أبي إلى مُعسكر مدينة ميراندا ديل إيبرو Miranda-del-Ebro، وأُرسلتُ أُمِّي إلى السجن المحليّ. وتركوني أنا مُفردِي. فقضيت أسوأ ليلة في حياتي وحيداً مُتجمّداً في زنزانه، مُعتقداً أنّي فقدت أبواي للأبد. وفي اليوم التالي أودعوني لملجأ الأيتام التابع للمدينة ممّا أحدث تحسُّناً طفيفاً في حالتي النفسيّة. وهناك بلغت سن الثالثة عشرة، وهي السن التي يتمّ فيها قبول الذكور بحسب طقوس دينية تدعى *bar-mitzvah* إلى كنيسة الجماعة اليهودية المؤمنة.

أخذني كاهن طيب القلب تحت رعايته وهدأني في ظلّ أشدّ ساعاتي العصيبة التي كنت أمرّ بها. وقد ساعدني أيضاً في تهريب بعض المال الذي كنت قد خبأته معي منذ خروجنا من فرنسا لتوصيله لأُمِّي في السجن، حيث كانت نصف ميتة جراء مرض الديزنتريا (إسهال شديد)، وغير قادرة على شراء طعام صحيّ كافٍ. ورُبّما أنقذ هذا المال حياتها.

وبعد عدّة أشهر أُرسلوني لأُلق بأُمِّي، وتمّ نقلنا إلى سجن النساء في مدريد. وكُنْتُ الذكر الوحيد في ذلك المكان، وكان على أُمِّي أن تُراقبني طوال الوقت. كان لنا زنزانه منفصلة، في حين كانت المسجونات الأخرى يُزج بهنّ في عنابر تسع من عشرين إلى ثلاثين سريرا. وكُنّا ننضم إلى النساء في أثناء النهار في تلك العُرف الكبيرة، ثم نذهب إلى زنزانتنا الخاصّة في المساء، وكُنّا مُرّ على زنزانات الموت حيث تنتظر النساء حُكم الإعدام، ونسمع في الليل صوت طلقات الرصاص. وفيما بعد تمّ لمّ شمل الأسرة مرّة أخرى في مدريد. وقامت "لجنة الخدمات الاجتماعية اليهوديّة المُشتركة" بتغطية نفقات معيشتنا، ولكن أتى وقت كان علينا أن نختار المكان التالي الذي سنهاجر إليه، وفضّلنا الذهاب إلى فلسطين.

كان ذلك في عام 1944 قُرب نهاية الحرب، وكانت الظروف في ذلك البلد الجديد صعبة للغاية. فتشاركنا مع أسرة عمّتي في شقة صغيرة، والتحقّت بمدرسة مهنيّة في "كيبوتس ياجور Kibbutz Yagur" (كيبوتس هي مجتمعات يهودية تعاونية) وأصبحتُ مُصلحاً ميكانيكياً للسيارات. لقد تم بناء هذه المدرسة لأولاد اليهود الألمان الذين نجوا من أوروبا، ولكن في الوقت الذي وصلت فيه لم يكن هناك من نجا، لذلك كان مُعظم التلاميذ من الذين يعيشون في تلك المنطقة - والذين يدعون بتسمية "صبر Sabras" (أي كل يهودي ولد في إسرائيل) - وكُنْتُ غريباً ومُختلفاً عنهم هنا أيضاً بسبب خلفيّتي المماثلة لليهوديّة على النمط الألماني من ناحية ومعرفتي القليلة بالعادات والتقاليد اليهودية من ناحية أخرى...

ومع الوقت، بدأت أشعر بالألفة في ذلك البلد الجديد، وأيضاً في الكيبوتس. وكان لي أصدقاء واشتركت في الأنشطة المُختلفة، مثل جمع العنب والدُّرة أثناء العُطل الصيفيّة. ولكنّي لم استطع تحقيق الكثير من طموحاتي الشخصيّة والمهنيّة والاجتماعيّة، فقد كانت هناك فجوات كثيرة في أسلوب

تعليمي. وكذلك كان الحال مع أبواي. وبالتدرج بدأت أُمِّي تُعلِّم نفسها اللغة العبرية ووجدت عملاً في مدرسة زراعية قريبة، ولكن أبي لم ينجح أبداً في تعلُّم اللغة الجديدة.

وبمجرد انتهاء الحرب أصبحت الحياة طبيعية إلى حد ما. فأُنهيت المدرسة وأصبحت عضواً في منظمة الهجانة السرية المسلحة Haganah وحاربت في حرب التحرير، ثم التحقت بـ تسوبا Tsuba (وهو كيبوتس قرب أورشليم) مع زوجة المستقبل سارة ذات الشعر الأحمر، وهي إسرائيلية المولد Sabra. وأخذت على نفسي عهداً مقدساً بالألّا أرحل مرة أخرى، فسيظل هذا بلدي مدى الحياة، وسأعيش هنا وأعمل وأربي أولادي كأحد أفراد الجماعة، وسأحاول مساعدة المُهاجرين الذين مروا بنفس الظروف الصعبة.

والآن عندما أتذكر طفولتي، أدرك أنّها قدّمت لي الكثير من الخبرات المُفيدة، ورُبّما مدّتي ببعض الحكمة. فقد أدركت أهمية اعتماد الناس بعضهم على بعض، ولاسيما في الشدائد. واكتشفت أهمية مُساعدة الآخرين وكلمات التشجيع. وأدركت أن بين الناس يوجد الصالح ويوجد الطالح في كل مكان، وأننا أنفسنا خليط من الخير والشر.

وعلى الرُغم من كُُلّ المُعاناة التي تسبّب فيها الألمان لي ولأسرتي، إلا أنّي ما زلت أشعر بصلتي مع تاريخهم وحضارتهم التي استقيتها من أهلي. وقد بذلت قصارى جهدي لإعادة خلق علاقات مع أشخاص ألمانين محترمين.

في الستينيات ناديت بالترحيب بالشباب الألمان الذين يأتون للعمل في مجتمعنا (كيبوتس) كمُتطوّعين وأيضاً استضافتهم من قبل الأسر المحلية لمجتمعنا ليكونوا على دراية بالتاريخ الحديث، وذلك على عكس السياسة التي كانت سائدة في ذلك الوقت من رفض أيّ نوع من الاتصال مع الألمان. كما أسسنا صداقات مع هؤلاء المُتطوّعين وما زلنا نتبادل معهم الزيارات. ونُحصر على الحوار المُستمر، ونفعل كلّ ما بوسعنا حتّى نُقويّ العناصر الإيجابية والمُضادة للفاشية في أوروبا التي تُناهض وتُحارب حركات الرجعية.

بطبيعة الحال، لا يُمكن أبداً أن ننسى السنتّة ملايين يهوديّ - بما فيهم 1.5 مليون طفل برئ - الذين قد تعذّبوا وماتوا على أيدي النازيين ومُعاونيهم. رُبّما نستطيع أن نُصالح أنفسنا مع ألمانيا الحديثة اليوم، ولكن كيف يمكننا أن ننسى الساعات الحالكة الظلام في التاريخ، وفي أوقات يأسنا الكبير، وكُنّا بمفردنا نُعاني ومُوت، بلا مساعدة من الجهات التي يسمونها "القوى الدولية"؟ وحتى إن سألنا هؤلاء الذين يعيشون في ألمانيا اليوم، فماذا عن هؤلاء الذين عذّبوا اليهود وغيرهم من الضحايا وقتلواهم بسبب الحقد النازي؟

فإن كان العُفْران معناه نبذ الكراهية العمياء ومشاعر الانتقام - نعم فهذا مُمكن. ولكن هل هذا يقضي بالعفو عن الوُحوش الذين ارتكبوا أبشع المجازر في تاريخ البشرية؟

رُبَّمَا أَعْفَرَ لِهَوْلَاءِ الَّذِينَ وَقَفُوا بِجَانِبِي غَيْرِ قَادِرِينَ أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا، أَوْ لِهَوْلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَجْرؤُوا عَلَى التَّكَلُّمِ جَهْرًا. فَأَنَا أَعْلَمُ مَقْدَارَ الشَّجَاعَةِ الَّتِي يَحْتَاجُهَا الْأَمْرُ لِكَيْ تَقِفَ أَمَامَ السُّلْطَاتِ وَتُعَارِضَ ذَلِكَ الرَّعْبَ الَّذِي يَفْرُضُهُ النَّازِيُّونَ. وَلَكِنِّي أَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ الْأَلْفَ مِنَ الطَّيِّبِينَ خَاطَرُوا بِحَيَاتِهِمْ لِيَسَاعِدُوا وَيَخْفُونَ الْيَهُودَ، عَالِمِينَ جَيِّدًا أَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ بِذَلِكَ أَنْفُسَهُمْ وَعَائِلَاتِهِمْ لِلْخَطَرِ.

هل يمكن أن نغفر لهتلر وزمرته؟ ولجُراس مُعسكرات الموت؟ ولأمري قوات ال SS وجنودها؟ وللعاملين مع هتلر في الجستابو Gestapo (الشرطة السريّة النازية)؟ هل يمكن أن نغفر لمنفذي التعذيب والقتل الذين عملوا على تجويع والرش بالرشاشات والخنق بالغازات السامة لمئات آلاف من الرجال والنساء والأطفال العرّّل؟

يُمْكِنُنِي أَنْ أَعْفَرَ لِلْجُنُودِ الَّذِينَ حَارَبُوا ضِدَّنَا فِي الْحُرُوبِ حَتَّى لَوْ كَانَتْ دَوَافِعُهُمْ خَاطِئَةً... يُمْكِنُنِي أَنْ أَعْفَرَ لِمَنْ حَارَبُوا لِيَحْمُوا أَنْفُسَهُمْ أَوْ لِلْمُطَالِبَةِ بِحَقُوقِهِمْ، حَتَّى لَوْ تَمَّ تَضْلِيلُهُمْ. وَلَكِنْ أَلَا تُوجَدُ حُدُودٌ لِلْعُفْرَانِ؟

اعتقد أننا نفهم الدافع وراء رفض شأؤول لأن يغفر للنازيين الذين ذبحوا بلا رحمة سِتَّةَ ملايين من الرجال والنساء والأطفال اليهود على أنه لم يكن بدافع النعمة أو الكراهية ولكن بدافع الخوف من أن العُفْران سيكون مرادفًا لعملية تبرئتهم من أفعالهم. وشخص مثل "شأؤول" الذي هو مصمم على ضمان عدم تكرار مثل هذه الفظائع ثانية في المستقبل، يصعب عليه أن يغفر إذا كان الأمر يتضمن التظاهر من أن محارق اليهود في ألمانيا - الهولوكوست - لم تحدث قط، أو أن الناس المسؤولين عنها لم يقترفوا بالحقيقة شرًا متعمدًا وقاسيًا زيادة عن اللزوم. فما لم يقرّ الفعلة بشناعة أفعالهم ويطلبوا العفو عما فعلوه من فظائع لن يغفر شأؤول لهم.

طبعاً سنجرح بشدة كل من فقد عائلة أو أصدقاء في معسكرات الموت إذا اقترحنا أن نعذر أفعال النازيين الشريرة أو لا نلقي باللائمة عليهم مباشرة. وأعتقد أن هذا سيكون شيئًا غير أخلاقي. لكن العُفْران ليس هو اختلاق الأعذار للناس أو إعفاءهم من اللوم.

كتب "سي أس لويس C. S. Lewis" في عام 1947 عندما بدأت مظاهر الرعب الكامل للهولوكوست (محارق اليهود في ألمانيا) تظهر للعيان لأنه كان على دراية تامة بأخطار تبرير أفعال الناس الشريرة. فكتب يقول: "هناك فرق كبير بين العفْران واختلاق الأعذار." وقال إنَّ مُعْظَمَ النَّاسِ لَا يَرِغِبُونَ فِي الْإِعْتِرَافِ بِأَنْفُسِهِمْ قَدْ ارْتَكَبُوا خَطَأً مَا، لِذَلِكَ فَهُمْ يُبْرِرُونَ أفعالهم. ويُجَاوِلُونَ أَنْ يَجْعَلُوا الْآخَرِينَ يَقْبَلُونَ أَعْذَارَهُمْ وَيَلْطَفُونَ الْأَجْوَاءَ وَيَتَّفِقُونَ مَعَهُمْ حَتَّى لَا يَلْقُونَ اللَّوْمَ عَلَيْهِمْ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَطْلُبُوا مِنْهُمْ الْعُفْرَانَ. وَيُكْمَلُ لُويْسُ قَائِلًا: "إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَخْصٌ يَجِبُ أَنْ يُلَامَ، فَلَا يَوْجَدُ شَيْءٌ يَسْتَحِقُّ الْعُفْرَانَ، وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْعُفْرَانَ وَاخْتِلَاقَ الْأَعْذَارِ نَقِيضَانِ." وَقَالَ:

إن العُفْران الحقيقيّ معناه أن تنظر بثبات للخطيئة، تلك الخطية التي ظلّت باقية بلا عذر، رغم شتى أنواع الحجج المختلفة، وأن تراها كما هي عليه من رعب وقذارة وخبث وحقد، وبرغم ذلك أن تتصالح بالكامل مع الشخص الذي أخطأت في حقه. فهذا هو العُفْران وليس سواه.

يُفَرِّق "بيل جادويك Bill Chadwick" من مدينة باتون روج في ولاية لويزيانا بين العُفْران واختلاق الأعدار بوضوح عندما كتب عن موت ابنه "مايكل Michael". لقد شعر "بيل" بحاجة مُلحة إلى رؤية العدالة تأخذ مجراها في حادث مقتل ابنه، ولكنّه في النهاية اكتشف أنّ العدالة نفسها لا يُمكن أن تأتي له بالرضا والسلام اللذين يسعى للحصول عليهما. فقد قال:

لقد قُتل ابني "مايكل" في الحال في حادث إصطدام سيّارة وهو في الحادية والعشرين من عمره في 23 أكتوبر 1993، ولقي صديقه المُقرب له والذي كان يجلس في المقعد الخلفي مصرعه أيضاً. والسائق الذي كان مثلاً للغاية ويسير بسرعة جنونية لم يُصب سوى بجروح طفيفة؛ وقد تمّ إتهامه لاحقاً بجرمتي قتل مروري. وكانت هناك آثارا بسيطة للخمر في دم "مايكل" ولم يوجد أي آثار في دم صديقه المقرب.

ودارت عجلات العدالة ببطء. وقد استغرقت المحكمة أكثر من عام لكي تُعد القضية ضد السائق. وحضرنا جلسة استماع وراء الأخرى، وفي كلّ مرّة كان يتمّ تأجيل القضية. وكانت هناك محاولة من قبل محامي المُتهم بالتشكيك باختبارات الكحول في الدم. ولكنها باءت بالفشل. وأخيراً أتمس المدعي العام بأن يحكم المتهم بالسجن لمدة ستة سنوات على كل جريمة، على أن تنفذ في آن واحد. اقترحنا على "دائرة تعليق العقوبات على الأحداث" أن يخوض المذنب برنامج في مُعسكرات التدريب لعله يكون نافعا له - فلم نكن نودُ أن نُؤذيه، ولكننا رأينا أنه بحاجة لأن يدفع جزاء ما فعله. ولكننا تلقينا خطاباً قبيحاً للغاية من والدته نُخبرنا فيه بأننا دفعنا القاضي للحكم بأقصى عُقوبة على ابنها. وقالت إنّه لو كان ابنها هو الذي مات بسبب قيادة "مايكل" ما كانت لتحمل في قلبها ضغينة ناحيته. وقلت لها ما لم نرى ابنها ميّت بالفعل فإنها يجب ألاّ تتكلّم عمّا كانت ستفعله أو لن تفعله. وتم حبس ابنها لمُدّة ستّة أشهر في مُعسكر تدريبيّ على أن يقضي بقيّة السنوات الستّ مُطلق السراح المشروط. وبعد ستة أشهر عاد ابنها، أما ابننا فلم يُعد.

اعتقد أنني كنت مؤمناً أنّ الأمور ستختلف بعدما مثّل المجرم أمام العدالة. وأعتقد أنّ هذا هو ما يقصده الناس عندما يتحدثون عن "حسم القضية". فنظنُّ أننا إن وجدنا من نُلقي عليه اللوم لشعرنا بالراحة. كثيرون يعتقدون أنّه لو استطعنا إيجاد منطق لأمر أو إن نال الجاني جزاءه، فسترول آلامنا أخيراً. وقد رأينا حكايات عديدة عن أناس يبحثون عن تلك الراحة والقصاص، وقد رأيتهم حتى

في البرامج التلفزيوني الشهير "أوبرا Oprah Winfrey Show" يُطالبون بموت المُجرم كما لو كان موته سيساعدهم بطريقة ما ويخفف عنهم

لا شك أنني غاضب من السائق، ولكنني غاضب من "مايكل" أيضاً. فقد اتخذ قرارات خاطئة في تلك الليلة، مما عرض حياته للخطر. شعرت بهذا الغضب حتى أتمكّن من التكيف مع مشاعري. ولكنني لم أشعر بالراحة حتى بعد حصول ذلك السائق على العقوبة. كل ما وجدته هو تلك الفجوة الكبيرة في داخلي، ولم يكن ممكناً لأي شيء أن يسدها.

وبعد عدة أشهر، خبطني موضوع العُفْران؛ فما لم أغفر للسائق فلن أجد الراحة التي أُنشدها. فالعُفْران له يختلف تماماً عن تبرئته من المسؤولية. فما زال السائق مسئولاً عن موت "مايكل"، ولكن عليّ أن أغفر له قبل أن أدع الحدث وشأنه. فلا يوجد أبداً أية عقوبة، ومهما كان حجمها، قادرة على جعل كفتي الميزان متعادلة. فكان يلزمي أن أكون مستعداً لأغفر بدون أن تتعادل كفتي الميزان. وعملية العُفْران هذه لا تتعلق بالسائق، ولكنها تتعلق بي. فكان يجب عليّ أن أمر من خلال تلك العملية، فلا بد أن أتغير، بغض النظر عما فعله.

كان طريق العُفْران طويلاً ومؤلماً. وكان يلزمي أن أغفر لآخرين غير السائق. كان يجب عليّ أن أغفر لأبني "مايكل"، ولله (الذي سمح بحدوث هذا)، ولنفسي. ولا شك أن عدم قدرتي على العُفْران لنفسي كانت أصعب شيء. فقد كانت هناك أوقات كثيرة في حياتي قُمت بتوصيل "مايكل" فيها إلى أماكن عديدة حين كنت أنا نفسي تحت تأثير الكحوليات. ولكن هذا هو مفتاحي للعُفْران - أن أغفر أولاً لنفسي. فقد كان غضبي على الآخرين هو مجرد انعكاس لمخاوفي الداخلية. فألقيت بخطي على الآخرين - على السائق وعلى المحكمة وعلى الله وعلى "مايكل" - حتى لا أضطر للنظر إلى نفسي.. ولم يحدث هناك تغيير في نظرتي للآخرين إلى أن تمكنت من رؤية الجزء الذي أخطأت فيه أنا شخصياً.

وهذا ما تعلمته: إن الراحة التي ننشدها توافينا من العُفْران. وتعتمد هذه الراحة علينا كلياً، لأن القوة اللازمة للعُفْران لا تكمن خارجنا بل داخل نفوسنا.

لقد تعلمت والد "مايكل" أكثر الدروس المؤلمة لكل أب وأم. ولكن من الضروري أن يتعلم هذا الدرس كل منا أيضاً، مهما كان وضعنا في الحياة. فما لم تفيض قلوبنا بالعُفْران لأولئك الذين يسيئون إلينا، فإننا لن نجد السلام مهما كان الحق الذي نطالب به.

أما في المجتمع الذي يشجع على الانتقام، فبالكاد أن تصير المغفرة فكرة مستحبة. وتدرجياً صارت حتى العقوبات التي تصدرها المحاكم غير كافية ولا تشفي الغليل؛ فيريد الناس أن يشتركوا شخصياً في عملية إنزال العقوبة بالشخص المُسيء إليهم. وقد أخذت العديد من الولايات بتقديم تشريعات تعرض على أسر الضحايا حق الحضور والتفرج عند تنفيذ حكم الإعدام. ومع ذلك، يظهر أن تلك الأسر لا تحصل أبداً على السلام الذي تشده. وعطشهم لرؤية الآخرين يتألمون بالعنف نفسه

الذي آذاهم شخصياً لا يرتوي أبداً. وبدلاً من شفاء جروحهم، فإنَّ رغبتهم في الانتقام تركهم مُشوَّشين ومملوءين سخطاً.

إنَّ العُفْران ليس هو التغاضي عن الخطأ. ففي بعض الحالات يكون "العُفْران والنسيان" ليس فقط مُستحيلاً فحسب، ولكنه قد يكون شيئاً غير أخلاقيّ. فكيف يُمكن لأيِّ شخص أن ينسى ابنه؟ ويمكننا أن نفهم جيداً سبب حصول المرء على مشاعر الألم والسخط والغضب، وقد تكون ضروريّة أيضاً، ولكن يجب أن تثمر هذه المشاعر الاشتياق إلى المُصالحة.

الغُفران حين تكون المصالحة مستحيلة

قد يكون رفض المُسامحة أسوأ بكثير من القتل، لأنَّ القتل قد يكون بدافع لحظات من سعيير الغضب، بينما المُسامحة هي اختيار بارد ومتمرو من القلب.

جورج ماكدونالد George Macdonald

عندما اختُطفت ابنة "مارييتا جيكر Marietta Jaeger" البالغة سبع سنوات من خيمتهم أثناء رحلة تخييم في ولاية مونتانا كان ردُّ فعلها الأول هو الغضب. فقالت:

كُنْتُ أغلي من الحقد ومستميّة على الانتقام. فحتّى لو تمَّ إرجاع بنتي "سوزي" الآن حيّة وبجالة جيّدّة لقتلت ذلك الرجل في الحال على ما فعله بأسرتي،" هذا ما قُلته لزوجي وما كنت أعنيه فعلاً بكلِّ جُزء من كياني.

يمكننا أن نفهم ونعذر "مارييتا" على رد فعلها هذا، إلا أنها سرعان ما أدركت أنّه لا يمكن لأيّ مقدار من الغضب أن يُعيد لها بنتها. فلم تكن مُستعدّة لأن تغفر لخاطف بنتها: فقد ظلّت تؤكّد لنفسها لفترة طويلة، أنّها لو غفرت له فهذا معناه خيانة لبنتها وصفح عن أفعال الخاطف. ولكّنها شعرت في أعماق نفسها بأنَّ غُفرانها له هو الطريق الوحيد لكي تتدارك الموقف في ظل فقدانها لبنتها.

وفي حالة اليأس هذه، بدأت تُصلي، لا من أجل عودة بنتها سالمة فحسب، ولكن أيضاً من أجل الخاطف. وطوال الأسابيع والشهور التي تلت الاختطاف أصبحت صلواتها لأجل عودة "سوزي" أصعب وأصعب؛ ولكنّ الغريب أن صلواتها للخاطف أصبحت أسهل وأكثر جديّة. فهي ببساطة أرادت أن تتعرف على الشخص الذي أخذ طفلتها المحبوبة. وشعرت برغبة كبيرة في التحدّث معه وجهاً لوجه.

وفي إحدى الليالي . بعد مُضيِّ عام بالضبط (وبنفس الدققة) على اختطاف بنتها . تلقَّت "مارييتا" مكالمة تليفونية. وكان صاحب تلك المكالمة هو المُختطف. وشعرت "مارييتا" بالخوف - فقد كان صوته بغيظاً ومخيفاً كاللص - ولكنها تعجبت من نفسها كيف كان لها مشاعر شفقة حقيقية لذلك الرجل في الجهة الثانية من خط التلفون. ولاحظت بأنه صار يهدأ حينما صارت هي تهدأ. وتحدّثا معاً لمُدّة ساعة.

ولحسن الحظ، استطاعت "مارييتا" أن تُسجّل المُكالمة. وعلى الرُغم من مُضيِّ شهرٍ على تعقُّب مكتب التحقيقات الفيدرالية له وقبضهم عليه، إلا أنّها منذ تلك اللحظة علمت أن "سوزي" لن ترجع البيت مرّة أُخرى. فقد عثر المُحقِّقون على عظام ظهر طفلة صغيرة بين متعلقات المُختطف اقترح قانون الولاية عقوبة الإعدام، إلا أن "مارييتا" لم ترغب في الانتقام. فكتبت: "في ذلك الوقت كنت قد أدركت أخيراً أن العدالة لا تدور حول موضوع إنزال العقوبات بل حول الإصلاح والشفاء." وطالبت عوضاً عن ذلك بأن يُقدّم لقاتل "سوزي" عقوبة بديلة بالسجن المؤبد مصحوبة برعاية طبيب نفسي. إلا أنّ ذلك الشاب المُعدّب أقدم على الانتحار ولكنها لم تندم قط على عرضها بتقديم المساعدة له. ولم تنته جهودها لفعل السلام هناك. واليوم، هي عضو في مجموعة تعمل للمُصالحة بين القتلة وعائلات الضحايا. وكان ذلك جزء من أسلوب شفائها، وشفاء الآخرين.

تُظهر لنا تجربة "مارييتا" أنّ كل القصص لا تنتهي نهاية سعيدة. فحتّى عندما تتمكّن من مُواجهة الشخص الذي يجب أن نغفر له فرما هو لا يشعر بالندم على ما فعله. وفي بعض الأحيان قد لا يتم العثور على القاتل، أو قد لا يعود شريك الحياة الذي هرب، فهل يكون العُفران في هذه الحالات مُمكناً أيضاً؟

تخلص "دانيال كولمان Daniel Coleman" من حياته لأنّه لم يستطع التعايش مع فكرة مقتل أخته "فرانسيس". إلا أنّ تلك المأساة المُزدوجة غيرت حياة الأم "آن Anne". فاليوم تساعد وتُقدّم "آن" المشورة للرجال المحكّوم عليهم بالإعدام في ولاية ديلاوير Delaware. وبدأ عملها عندما تقابلت لأول مرّة مع "بربارة لويس" وهي سيّدة حُكم على ابنها بالإعدام. وبعد زيارتها مع "بربارة" لابن "بربارة" المسجون بدأت معاً في زيارة السجناء الآخرين أيضاً. فتقول:

هكذا تقابلت مع "بيلي". فلم يكن هناك من يزوره، وكان وحيداً للغاية. وأبكي دائماً عندما أتذكر كيف علقوه؛ وكيف وقّفوه عند المشنقة في وسط العواصف على الأقلّ لمُدّة خمس عشرة دقيقة انتظاراً لوصول الشهود. وبعدها تمّ إعدامه، خارت عزمي وقلت مع نفسي: "لا أقوى على الاستمرار بعد."

ثم تعرّفت على صبي صغير يُدعى مرقس، كان أبوه قد حُكم عليه بالإعدام أيضاً. ولم يكن له أم وكان قد فقد أخته أيضاً، وكان يُعاني من الكوايسس لأنه على وشك أن يفقد والده أيضاً. أنا أعلم بأنني إذا كرهت شخصاً فلن يعيد ذلك ابنتي إليّ. وحالياً، لست متأكدة من أنني سأجد الشخص الذي قتلها يوماً ما. غير أنّ المرء بحاجة ماسة إلى إيجاد شفاء ما، وأنا وجدته وهو عن طريق مساعدة كل الناس في العالم من الذين يشبهون "بربارة" و "مرقس". إذ أن مُساعدتهم أعطتني شفاءً أكثر ممّا كنت أتخيّل.

فقدت "جينيفر Jennifer"، وهي إحدى معارفي من مدة طويلة - خطيبتها الذي تركها قبل عشرة أيام من موعد زفافهما ولم تره ثانية أبداً. كانا مخطوبين لأكثر من عام، وعلى الرُغم من أنّ علاقتهما عانت من اضطرابات من وقت لآخر، إلّا أنّها كانت واثقة من أنّه سيأتي الوقت الذي ستنجح فيه علاقتهما. فقد أحبته كثيراً، وكانت فرحانة جداً. وكانت وقتئذ قد تحرّجت من كُليّة التمريض، وشارفت على الانتهاء من إعداد ثوب الزفاف. عندئذ تحطّم كلّ شيء. فاسمعوها تقول:

كشفت لي خطيبي أنّه لم يكن أميناً معي، وأنّ هناك أشياء من ماضيه ما زالت تعوّق زواجنا. والأسوأ من ذلك، أنّه أراد أن يهرب من كلّ شيء بدلاً من مُواجهة ماضيه. أما أنا فتحطمتُ. وبكيت لأيام طويلة وانسحق قلبي لسنين. ولُمت نفسي على عدم أماتته، وشعرت بالبغض والاستياء.

وبعد مُضيّ ثلاثين عاماً ما زالت "جينيفر" عازبة، ولكنّها لم تعد تشعر بالبغض. وقد غفرت لخطيبتها بصورة كاملة ومن صميم قلبها بالرغم من أنّها غير قادرة على إخباره بذلك لأنها لا تعلم أين هو. وعلى الرغم من أنّها في بعض الأحيان مازالت تشعر بالألم نتيجة للزواج الذي لم يتم، وحُزنا على الحُب الذي ضاع، فقد وجدتُ إشباعاً حقيقياً في مساعدة وخدمة الآخرين من كبار السن والمرضى والحوامل والأطفال المعاقين. يعلم البعض من أصدقائها بماضيها. ولكونها فرحانة ومليئة همّة نراها مشغولة جداً ولا تملك في قلبها أي شفقة على الذات. فتقول:

باعتباري عازبة، أستطيع أن أقوم بالكثير من الأمور التي لا تقدر أبداً عليها الزوجة المشغولة أو الأم. فأنا يُمكنني أن أقدم خدماتي أينما كانت هناك حاجة لي وفي أيّ مكان كان. وقد صار بوسعي رعاية ومحبّة أطفال أكثر بكثير مما لو كنتُ متزوجة.

تركت "جولي Julie" مع زوجها وأولادها مجتمع كنيستنا - المجتمع الأخوي - بعدما واجهت زوجها بتحرشه بابتئهما. وبالرغم من الصدمة التي أصابتها وأيضاً الهلع، جراء ما فعله إلا أنها كانت لا تزال تحبه وتأمل في أن يتمكنوا من إعادة بناء علاقتهم كأسرة من جديد خارج مجتمعنا. وللأسف لم تنجح الأمور بهذا الأسلوب، فتقول:

كنتُ مُهارة وعلى مشارف اليأس. فقد أصبح زوجي شخصاً غريباً عنيّ، ولم أتمكّن فيما بعد من العيش معه لأن الحياة تحولت إلى جحيم، فقد قضينا عاماً كاملاً بعيداً عن مجتمعنا الأخوي، آمليين أن نُنقذ زواجنا وأسرتنا ولكن بلا فائدة، فقد ضاع كلُّ شيء.

فتركته وُعدتُ إلى مجتمعنا الأخوي، غاضبة ومجروحة وكارهة ومرفوضة ويائسة ومهانة ومذلولة - ولا يمكن لكل هذه الصفات أن تُعبّر عمّا شعرت به وقتئذ. واضطرت معركة في قلبي. وأردت أن أغفر، لكنني في الوقت نفسه كنت أريد أن أوجه له ضربات الانتقام، وكلما تذكرتُ زوجته الجديدة (فقد طلقني وتزوج من أخرى) كانت مشاعري تشتعل بالغضب تجاهه. لم تُكن معركة سهلة فهي ما تزال مُستمرة، في الوقت الذي أشهد فيه تلك الآثار السيئة تنعكس على أولادنا الخمس جراء إساءة المعاملة وجراء الانفصال.

كانت معركتي هي أنني كنتُ بالحقيقة راغبة لأغفر له: فقد أردت فعلاً أن أغفر له من صميم قلبي. فقد علمت أن هذا هو واجبي. ولكن كيف يمكنني أن أغفر له وهو لا يُبدي أيّ ندم؟ وماذا سيكون شكل التعبير العمليّ لعُفْراني؟

لم أرغب في التغاضي عمّا فعله بأية طريقة، وقد أخبرته أنه لا يمكنني أن أسمح لأولادي أن يظلوا معه فيما بعد، ولكنني قررت أن أكثر إجراء مفيد يسعني عمله وقتذاك كان قبول الطلاق.

ومنذ ذلك الحين اكتشفت أن عُفْراني له لم يكن شيء أعمله مرة واحدة فقط. إذ كان يجب أن أوكد على عُفْراني مرّة ومرّات. وأحياناً أشك في أنني قد غفرت له فعلاً، وأصارع مع هذا الأمر أيضاً، ولكنني، وفي نهاية المطاف، أعلم أن كلّ الأخطاء التي ارتكها زوجي في حقّي لا يمكن لها أن تُدمّرني.

توضح قصة "جولي" نقطة هامة ألا وهي أنه رغم أن زوجها السابق لم يُظهر أيّ شعور بالندم، إلا أنها ما زالت تغفر له. وإن لم تفعل فستظلُّ هي مُقيدة بمشاعر البغض نحوه، وسيستمر هو في التأثير على أفكارها ومشاعرها. وستظلُّ مجروحة بما فعله لها ولأولادها طوال الحياة. ولكن من خلال طرح غضبها وحقدتها خارجاً، ومن خلال إدراكها بأن التلصص بالبغض ما هو إلا طاقة مهدورة، وجدت آنذاك قوة جديدة لتداوم في محبة أولادها وخدمتهم وأيضاً قوة تقويها لتستمر في الحياة.

الغُفران في الحياة اليومية

وعندها علمتُ أنَّ الشفاء
لُكلِّ جروحنا
هو الغُفران
الذي يسمح بوعده
رجوعنا
في النهاية

عندما تطلعت إلى وجه
والدي المتوفى للمرة الأخيرة
قالت أمِّي بلا دموع
وبلا ابتسامات
ولكن بلُطف:
"عمت مساءً يا "ويلي لي".
سأراك في الصباح."

أليس ووكر Alice Walker

قد لا يواجه الكثير منا أبداً موقفاً يحتم علينا أن نغفر لقاتل أو لمغتصب جنسي. ولكننا نواجه جميعاً يومياً حاجتنا لأن نغفر لشريك حياة أو لأحد الأبناء أو لصديق أو لزميل عمل - وربما عشرات المرات في يوم واحد. وهذا العمل ليس أقل شأناً. يُظهر "وليام بليك William Blake" في قصيدته "شجرة السم" كيف أن أصغر ضغينة يمكن لها أن تنمو وتُزهر وتحمل ثماراً قاتلة.

غضبت من صديقي:

وأخبرته بغضبي، فزال غضبي.

غضبت من عدوي:

ولم أخبره، فكبر الغضب.

وغذيته بالخوف،
صباحاً ومساءً... بدموعي؛
وراعيته بالابتسامات،
وبالخداع الناعم.

فنما نهراً وليلاً،
حتى أثمر تُفاحة لامعة؛
ورآها عدوِّي تلمع،
وعلم أنها لي.

وعندما أرخى الليل سدوله،
دخل إلى حديقتي وسرقها:
في الصباح أرى عدوِّي
مُتنعماً تحت الشجرة.

إنَّ الظنون الصغيرة في الحياة اليومية هي بذور شجرة الشاعر "بليك". فلو سقطت تلك البذور في قلوب خصبة، فإنَّها ستنمو، وإذا كان هناك من يرعاها ويُغذيها فستكون لها حياتها الخاصة. رُبَّما تكون صغيرة وتبدو كما لو كانت تافهة يصعب على المرء أن يراها في البداية، ولكن برغم ذلك يجب القضاء عليها. يُظهر لنا "بليك" في أوَّل سطرين سهولة القيام بذلك: فالذي نحتاجه هو أن نُواجه مشاعر الغضب لدينا في الحال ونقلعها من جذورها قبل أن تنمو.

كان عليّ تعلُّم ألاَّ أحمل ضغينة في حياتي منذ نعومة أظفاري. فقد كانت طفولتي سعيدة في معظمها ولكن كان لي نصيبي أيضاً في الخبرات السيئة. لقد كُنْتُ طفلاً مريضاً. فقد أخبر الأطباء والدي بعدما وُلِدْتُ بفترة قصيرة أنني أعاني من مرض "استسقاء الرأس" (ماء على المخ) ولن أتمكن من السير على قدمي أبداً. وعلى الرُّغم من أنه لم تثبت صحَّة ذلك - فبدأت المشي عند سن الثانية والنصف - إلاَّ أنَّ تسمية "أبو رأس الماء" التصقت بي. وتسبَّب هذا في ألم كبير لوالدي وأثر عليّ أنا أيضاً.

كُنْتُ وحيداً. فقد كان هناك سبعة أطفال في عائلتنا غير أنني كنتُ الصبيّ الوحيد. بالإضافة إلى أن والدي كان بعيداً عنّا لمدة ثلاث سنوات وأنا كنت ما أزال في عمر خمس سنوات. لهذا كنت أتوق للأصدقاء.

وعندما بلغت السادسة، كان يجب أن أزيل وربما كبيراً من ساقِي. وقد كانت هذه أوّل عملية من عمليات كثيرة أجريتها خلال الثلاثة عقود التي تلت. واستمرّت العملية لمُدّة ساعتين، وظلّ خطر الإصابة بأيّ ميكروب يداهمني لأيام إذ لم تكن المضادّات الحيويّة قد ظهرت بعد، حيث كُنّا نعيش في الغابات النائية في دولة باراجواي. وبعد تقطيب الجرح الذي كان في ساقِي، عُدت مباشرة إلى منزلي سيراً على الأقدام. ولم يُقدّم أحد لي أية عكازة أو ما إلى ذلك، ولا نستطيع بالطبع التحدث عن تقديم عربة لتوصيلي إلى البيت. ولا أزال أرى وجه والدي المصدوم عندما دخلتُ إلى المنزل بعرجي، على الرغم من أنّه لم ينطق بكلمة.

وحالهما حال أي والدين، فقد كان والداي يصارعان في مشاعرهما عندما تتعرض نحن الأولاد إلى أية إساءة في المعاملة من قبل معلم أو أي شخص بالغ آخر. ولكنّهما أصراً على أنّ السبيل الوحيد للتغلّب على مثل هذه الإهانات الصغيرة في الحياة هو العُفْران.

وعندما بلغت الرابعة عشرة، انتقلنا إلى الولايات المتحدة. وكان التغيير من قرية في براري أمريكا الجنوبية إلى مدرسة ثانوية حكومية في ولاية نيويورك هائلاً. كانت اللغة الإنجليزية بالتأكيد عائقاً بالنسبة لي، ولكنني كُنْتُ خجولاً أيضاً لأنني شعرت بأنني أخرق ومتخلف. فكل طالب سعى ليكسب تقدير زميله أو زميلته - ولم يرد أحد أن يكون وحيداً - ولم أكن أنا مختلف عنهم. فقد حاولتُ يائساً أن أكون مقبولاً بينهم، وخرجت عن طوري لأرضي زملائي الجدد. وفي البداية تمّ الاستهزاء بي وبصفة خاصّة من صبي معروف عنه أنّه شقي. فأخذتُ أردّ عليه بالعداء، ولما كان كل أصدقائي مهاجرين مثلي بدأنا نسكر منه بلا رحمة، وكُنّا نتحدّث بالألمانية فيما بيننا لأننا نعلم أنّه لم يكن يفهم كلمة واحدة منها. وقادتنا العداوة إلى أكثر من مجرد أنوف تدمي.

وفي العشرينات من عمري صار عليّ أن أتعامل مرة ثانية مع مشاعر رفض وإقصاء الآخرين. فقد تعمّقت علاقتي بشابّة وخطبتها ولكن فجأة وفي أحد الأيام جافتني وتركتني. صارعت في داخلي لأعفر لها، ولأعفر لنفسي أيضاً، ولاسيما لأنني لم تكن لديّ أيّة فكرة عن سبب إنهاءها لهذه العلاقة بيننا. (أقنعت نفسي أنّ الأمور ساءت بيننا بسببي، لأنني شعرت بأنني غير مُناسب لها على الإطلاق.) وبعد عدّة سنوات تحطّمت آمالي ثانية عندما أنهت شابّة أخرى علاقتها بي بعد عدّة شهور. فأنهز العالم من حولي عندما حاولت أن أفهم سبب حدوث ذلك. ما الخطأ الذي ارتكبته؟

واستغرق الأمر مَيَّ وقتاً طويلاً لكي أتغلب على جُرْحي، وأعيد بناء ثقتي في نفسي. ولكنَّ أبي أكَد لي أنَّه في الوقت المُناسب سأعثر على الإنسانة المُناسبة، وقد ثبت صحَّة ما قاله عندما وجدتُ زوجتي "فيرينا" بعد عدَّة سنوات.

من السهل أن نغفر للغريب عن أن نغفر لشخص نعرفه وثق فيه. وهذا ما يجعل الأمر عسيراً جداً في أن ينجح المرء في تخطي محنة خيانة وغدر أصدقاء عزيزين له أو زملاء عمل مقربين. فهُم يعرفون أفكارنا ونقاط ضعفنا وصفاتنا - وهُم عندما ينقلبون علينا فإننا من دون شكَّ سندوخ ونتعذب. لقد مرَّ "بيتر Pete"، وهو صديق لي من فيرجينيا، بتجربة ماثلة، فيقول:

كان عليَّ تصفية حساباتي مع شريكي الذي شاركته لمدَّة عشر سنوات قبل الانتقال لولاية أخرى وترك مصلحة عملي. كان الأمر عسيراً بسبب حقيقة أنَّه وزوجته كانا قريين جداً مَيَّ؛ فقد كُنَّا أصدقاء على مدار الخمسة عشرة سنة الماضية.

لم يكن بوسع أحد أن يتخيل الكيفية المُنصفة التي كنت أنوي فيها توزيع حصص مصلحتنا. فلم أكن أبغي أن أكون عادلاً وحسب، بل وكرهما أيضاً. فلم أبع أن يكون هناك شيء ما عالق في ضميري. فأتيت بتقسيم يُعطني نصف الأرباح لغاية اليوم الذي تركت فيه المصلحة، وتركت لهم النصف الآخر، مع جميع الأشغال التي كانت قائمة آنذاك، ومع جميع الأسهم وجميع أمنياتي الطبية لهم بدوام التوفيق في المصلحة. بيد أن كليهما رأى الأمر كُله بطريقة مُختلفة، وتوقَّفاً عن التحدُّث معي من اليوم الذي أخطرتُهما فيه بذلك. ولسوء الحظ كُنْتُ قد أخطرتُهما بذلك قبل شهرين من التحويل الذي اتسم بأنَّه طويل وصامت ووحيد تتخلله كلمات وعبارات الغضب فقط.

ولم تتمكن من توقيع أية اتفاقية حتى عند قدوم موعد تركي للمصلحة. فقد أتى كلُّ منَّا بمحامٍ مما عكَّر المياه بيننا. أما أنا فكنت أود أن يكون هناك مصدر خارجي ليحكِّم في العرض الذي قدمته، ولكنَّهم أبعَدوا المُحكِّم وطلبوا النصيحة من مُحاسب عملنا معه لمدَّة سبع سنوات. ولا أعلم ماذا جرى، ولكنَّه سرعان ما فقد حياديته وبدأ يعمل ضدِّي.

تطلَّب الأمر كثيراً من العُروض والعروض المُضادَّة، حتَّى نصل إلى اتفاق. وقد أُصرَّوا على أنهم لا يتمكنون من إرسال الشيك لي بالبريد قبل 31 ديسمبر على الرُّغم من أنه تمَّ اتخاذ القرار على دفع المبلغ في بداية شهر ديسمبر. وفيما بعد علمت أن هذا التأخير جعلني لا استحقُّ سوى نصف مكاسبنا عن السنة كلِّها - رُغم أنني لم أتلق نصيبي من الأرباح إلا في شهر يونيو. وانتهى بي الأمر بأنني دفعت مبلغ 50000 دولار للضرائب. كُنْتُ غاضباً للغاية ولم أتمكَّن من النوم لأيَّام. فقد شعرتُ بأنَّ صديقي والمُحاسب قد خاناني كلياً. وشعرتُ بأنَّهما قد تآمرا عليَّ ليسحقوني.

كان عليّ أن أبذل مجهوداً كبيراً حتى أغير لهم، ولكنّي وجدت القوّة لأفعل ذلك. ثم أدركت أنّي بحاجة إلى الكتابة إليهما لأطلب منهما العُفْران أيضاً. وشعرت براحة كبيرة عندما أغلقت الطرف ووضعت الخطاب في البريد. لقد كنتُ بحاجة إلى الحرّية من مشاعر الغضب بغضّ النظر عن ردهما. وبعد مُضيّ شهر اتّصلت بي صديقة من نصحتني بضرورة مُسامحتهم لتسألني إذا كنت قد تمكّنت من فعل هذا أم لا. فأخبرتها بما فعلت فأجابت: "لقد أحسست بأنك سامحته؛ إذ أنّي قد لاحظت عليه (على الطرف الآخر) كذلك وكأنّ حملاً ثقيلاً قد أُزيل من عليه فعلاً".

لسوء الحظ أن خيانة الأصدقاء أو الزملاء أمر معروف في كل الأوساط. كان أبي معروفاً بقدرته على التشجيع والنصح بصفته راعي كنسي في المجتمع الأخوي (الذي كان يسمى سابقاً مجتمع برودرهوف Bruderhof). فأينما ذهب كان الناس يودّون التحدّث معه. فكان للعديد منهم أعباء ثقيلة في صدورهم ييغون طرحها عنهم، في حين أحتاج غيرهم إلى من يستمع إليهم ليس إلا. ولكن نفس تلك الأشياء التي جعلت بعض الناس يُحبّونه، كانت تُلقِي بذور الحسد في قلوب الآخرين تجاهه. لقد عانى أبي من مُشكلة في كليته في الفترة التي وُلدتُ فيها، وزادت هذه المشكلة بتقدمه في العمر. فالحياة في دولة بارجواي كانت قاسية؛ إذ انتشرت الأمراض، وأدّت التوترات في مجتمع كنيستنا إلى جعل الصراع من أجل البقاء أصعب. وقد ثقلت على أبي أحمال مسؤولية القيادة بشكل لم يكن له سابق. ففي إحدى المرات، وبعد عدّة أسابيع من الضعف الجسديّ المُستمر، أخبره الأطباء أنّه لم يعد لديه سوى أربعين ساعة فقط ليعيشها. وتحسباً من حدوث ما هو أسوأ، استدعى المجتمع الأخوي كلّهُ إلى جواره على فراش المرض، وشجّعهم حتى يظلّوا أقوياء وثابتين أمام تلك الظروف القاسية التي يعيشون فيها. وسلّم مسؤولياته كشيخ كنيسة إلى ثلاثة رجال، وكان أحدهما هو زوج أخته.

تمثال أبي للشفاء وتغيرت الأمور وبدلاً من أن يعيد الرجال الثلاثة قيادة الرعية له أخبروه أن أيّام قيادته قد انتهت وولّت؛ إذ قد أعلن الطبيب أن حالته الصحية ضعيفة جداً ولا تسمح له تحمّل مطالب مهمة صعبة كهذه. وقالوا بأنّ السبب الرئيسيّ وراء ذلك هو "عدم الاستقرار العاطفي" الذي أظهره في أوج مرضه عندما حلم بأحلام غريبة وهلوسات. قرّر أبي ألا يُجارب هذا القرار، وبدأ العمل في إرساليّتنا الصغيرة في المدرسة والمُستشفى، لأنّه ببساطة لم يكن قط من الرعاة المُستعدّين لفرض إرادته على الآخرين.

وعلى الرَّغم من أنَّ والدايَّ لم يُدرِكا الأمر في وقته، إلاَّ أن هذا التغيُّر في الأحداث لم يكن من باب المصادفة. فقد جرى إعدادها في محاولة متعمدة لتنحيته عن عمله الذي كرَّس حياته له. في الواقع، كان اقتراح الطبيب أن يأخذ والدي راحة إضافية لمجرد بضعة أسابيع، ولكنَّ القادة الجُدد غيَّروا كلامه لخدمة أهدافهم. (ولم نعرف السبب الحقيقي وراء الهلوسات التي كانت تحدث لأبي إلا بعد مضي ثلاثين عاماً حين اكتشف الأمر طبيب آخر، وشرح لنا أنَّها كانت تحدث كأثار جانبية لعلاج البروميد البدائي الذي كان يستخدمه.) ولم نشعر أبداً نحن أولاده بأية مرارة بغض أو إمتعاض من جانبه.

ولم يمرَّ وقت طويل حتى ظهرت مُشكلات جديدة في مجتمع كنيستنا. فقد ضمَّ والدايَّ صوتهما إلى أصوات حفنة من الإخوة والأخوات الآخرين الذين حاولوا أن يحذروا مجتمع كنيستنا بأسره من أنَّ الرحمة الأصيلة قد خنقتها مجموعة من النُظم والقواعد، إلاَّ أنَّ كلامهم أسيء فهمه. فتم استبعاد العديد منهم، بضمنهم أبي، بتهمه أنَّهم يحاولون عمل انقسام متعمد في الجماعة. وعلى الرَّغم من أنَّ والدي كان مُزارعاً ماهراً (فقد كان قد درس الزراعة في زيورخ)، إلاَّ أنَّه لم يستطع الحصول على عمل من أيِّ نوع كان. فالمستوطنون الألمان في بارجواي الذين كانوا يميلون إلى التعاطف مع النازيين، كانوا ينظرون إليه بشكٍّ، أما البريطانيون والأمريكان المغتربون فكانوا يخشونه لأنَّه مجرد ألماني الجنسية. وأخيراً وجد عمل كمُدبر مزرعة في مصحَّة للجُذام.

في أوائل الأربعينيات لم يكن هناك علاج لمرض البرص، ولهذا السبب كان يُعدُّ عملاً كهذا خطيراً للغاية. ولقد حذَّر الكثيرون والدي من العدوى وأخبره أكثر من طبيب أنَّ عمله هذا قد يجرمه من رؤية أولاده وزوجته مرَّة أخرى. فالعذاب الذي مرَّ به يفوق الوصف.

لن أنسى مدى فرحتي في اليوم الذي رجع فيه والدي من مصحَّة الجُذام هذه. فلقد قفزت على كتفيه عندما دخل البيت وصحَّت: "عاد أبي!" لكلِّ من كان يمرُّ بنا، إلاَّ أنَّ الجميع قابلونا بنظرات جامدة.

ومضت سنوات قبل أن أكتشف السبب الحقيقي وراء رحيل أبي: فقد شعر أن الرعاة الكنسيين لجماعتنا صاروا مُستبدين جداً، وقمعيين، وباردي القلب. ولما طالبهم بأن يكون عندهم أكثر رحمة وأوسع صدراً، اتَّهموه بأنَّه "عاطفي". ومع ذلك لم يكنَّ أبي لهم أية بغض أو كراهية.

في العشرينات من عمري سمعت لأول مرة عن هذه القصص والأحداث من أصدقاء أبي القُدامى. فارتعبت. وتساءلت: "ماذا سيكون ردُّ فعلي إذا تمَّ تنحيتي جانباً بلا مبرر من قبل أصدقائي وزملائي الذين أثق فيهم؟"

وفي عام 1980 عرفتُ الجواب. فقد طلب مني مُجتمع جماعتنا فجأة أن أتخى عن دوري كشيخ كنسي، وهي الوظيفة التي عملت بها لمدَّة ما يقرب من عشر سنوات. ولغاية هذا اليوم لست

متأكداً تماماً مما حدث. بالتأكيد كان هناك نفس عامل الغيرة المُقسَّم الذي آذى أهلي قبل أربعين عاماً، ولكن في هذه المرّة كان أصدقائي وزملائي وأخواني من أبي وأمي هم الذين انقلبوا ضدي على الأكثر. فالذين كانوا دائماً يمدحونني ويشجعونني صاروا فجأة يبحثون عن أخطاء في كل ما فعلته.

وكنتييجة لشعوري بالحيرة والغضب، صارت لدي دوافع للرد على الشر بالشر. ولكن هذا التحوُّل حدث في وقت سيئ بالنسبة لي: إذ توفّقت والدتي بمرض السرطان مجرد قبل أسابيع قليلة، بالإضافة إلى أنني شعرت في ذلك الوقت أن مجتمع كنيستنا يحتاجني أكثر من أي وقت مضى. وأردت يائساً تحسين ما أقوم به واستعادة مكانتي "الصحيحة". وبطبيعة الحال، فقد رفض أبي أن يُدعمني في شن حرب مُضادّة على المُجتمع. وذكرني أنّه في النهاية نحن لسنا مسئولين عمّا يفعله الآخرون بنا - ولكننا مسئولين فقط عمّا نفعله نحن بهم.

وبينما كنّا نتحدّث، بدأت أدرك أنّي لم أكن نقيّاً وبلا لوم كما كنت أعتقد. ففي أعماقي كنّت أحمّل ضعينة تجاه أفراداً مُعيّنين في مجتمع كنيستنا. وكان يجب عليّ أن أطلب منهم العُفْران بدلا من محاولة تبرير نفسي. ومُجرّد أن فعلت هذا، اتخذ صراعي معنى جديداً. فقد شعرت بأنّ هناك سدا انفجر في مكان ما في أعماق فؤادي. فكل الأذية التي كنت أشعر بها سابقاً كانت بسبب تخدش كبريائي وافتخاخي؛ أما الآن، فتحررت وصار بمقدوري أن أسأل نفسي: ما فائدة ذلك على المدى الطويل؟

وبتصميم جديد على تصحيح مسار الأشياء وتحمل مسؤولية شخصية لتلك التشنجات التي حدثت، ذهبت وزوجتي إلى أناس شعرنا بأننا آذيناهم في الماضي وطلبنا منهم السماح. وبينما كنا نذهب من واحد لآخر شعرنا بأنّ حملاً أخذ ينزاح عن قلوبنا تدريجياً.

كانت تلك السنة سنة مُؤلّمة جداً بالنسبة لي ولزوجتي، ولكنها كانت سنة هائلة أيضاً. إذ أنّها أهلتنا للمسؤوليات التي نحملها الآن عن طريق حصولنا على حسّ مرهف عند تعاملنا مع الآخرين. كما علّمتنا دروساً لن ننساها أبداً. أوّلاً، لا يهمّ إن أساء الناس فهمك أو اتهموك ظلماً؛ ولكنّ المهم هو ألا تُسيء أنت فهم الآخرين أو تتهمهم ظلماً. ثانياً، صحيح أن قرار الصفح عن ذنوب الآخرين يجب أن يكون دائماً نابعاً من القلب، إلا أننا لا نستطيع أن نتغيّر ونقوم بهذه الخطوة بفضل قوتنا البشرية الذاتية. فالقدرة على العُفْران لا تأتي منّا، ولكن من تجربتنا الشخصية بأنّ هناك من غفر لنا.

مرّ "جيم و كارولين ويكس Jim and Carolyn Weeks" بأوقات عسيرة في السنة نفسها. فقد وجداً أيضاً أنّ العُفْران هو السبيل الوحيد للمصالحة. وتكتب "كارولين" قائلة:

في عام 1980 كان قد مرّ على إقامتنا في المجتمع الأخوي (مجتمع برودرهوف) خمسة سنوات، وكان طموحنا أن نصير أعضاء كاملين في الجماعة الأخوية، ولكن ذلك الوقت اتّسم بالفوضى والتشويش، وعندما لم نستطع فهم الأمور، تضايقنا بسرعة وانتهى بنا الأمر بأن تراجع ونزوي جانباً.

وأخيراً قرّرنا أن نطلب ترك المجتمع الأخوي لعدّة أسباب ليتسنى لنا التعامل مع الموقف كعائلة ومن ثم نجد سلاماً. ولسوء الحظّ أساء الناس فهم طلبنا، وانتهى بنا الأمر بهجر الجماعة كلياً وكأنه رحيل من غير رجعة. فلن أنسى كيف ركبنا السيارة وغادرنا. وجاء بعض الأصدقاء لتوديعنا ولكني لم أشعر في داخلي بأيّ شيء سوى بفرغ عظيم.

فقبل أسابيع قليلة فقط كُنّا متأكدين بأننا سنصبح أعضاء دائمين في مجتمع برودرهوف الأخوي، أما الآن، فقد تحطّمت كلّ أحلامنا. إذ أننا قد ضحينا بكلّ شيء لكي ننضم لهذا الأسلوب من الحياة. وكوننا كُنّا عائلة شابة متزوجة حديثاً فقد جلبنا معنا بعضاً من هدايا زواجنا التي كانت ما تزال آنذاك مغلفة بورق الهدايا. وكُنّا قد سلمنا سيارتنا وكل ما فملك إلى المجتمع الأخوي.

لقد جهزنا المجتمع الأخوي بشاحنة مملوءة بالأثاث وحتى بسائق خاص لتوصيلنا إلى البيت الجديد في مدينة بولتيمور، إلا أنّنا ومع ذلك كُنّا ما يزال نصارع مع أحاسيس رفضهم وتخليهم عنّا. لقد شعرنا بأننا فاشلون جداً. وحاولنا أن ننسى كل ذكرياتنا مع المجتمع الأخوي - كانت هناك أوقاتاً سعيدة كثيرة - ونرمي أنفسنا بكل ثقلها إلى حياتنا الجديدة في بولتيمور وبعيداً عن الجماعة الأخوية.

واستغرق منا الأمر ثماني سنوات حتى تعافينا مادياً، وذلك بمُساعدة كبيرة من الأهل والأصدقاء. في ذلك الوقت رضينا بالنصيب وبكل ما حلّ بنا. وحصل كلانا على وظيفة مستقرة، وداوم الأولاد في مدارس جيّدة، وكان لديهم كثير من الأصدقاء، وبقي لنا مجرد بضعة سنين لإطفاء دين رهن العقار. أما داخلياً فكُنّا فارغين ووحيدين، وعلمنا بأننا نفتقر إلى شيء مهم. وتحدّثنا مبدئياً عن محاولة العودة إلى مجتمع برودرهوف الأخوي ولكننا بعد عدّة سنوات تخلّينا عن هذا الأمل بالكامل. لم ندرك وقتها أنّنا كُنّا بالحقيقة قد بنينا جداراً ضخماً من البغض والامتعاض في قلوبنا.

في صباح أحد الأيام وبعد مُضيّ ما يقرب من عشرة أعوام على رحيلنا، رنّ جرس التليفون في ذات الوقت الذي ركب فيه أولادنا أتوبيس المدرسة. فقد كان على الحظ عائلة من المجتمع الأخوي كانت يومئذ في المدينة وأرادت زيارتنا. في البداية كُنّا خائفين، ولكننا قُمنّا بدعوتها على العشاء. وعلى الرُغم من أنّنا لم نسوّي جميع مشاعرنا، فلقد كُنّا نعلم أنّنا نشعر بفرح عميق في داخلنا. وغادرت العائلة ولم نر أيّ شخص من الأخوية مرّة أخرى إلا بعد مضيّ عدّة شهور عندما زُرناها لمجرّد زيارة "في عطلة نهاية الأسبوع".

وإذا بنا نعاود الزيارة أثناء عطلة نهاية أسبوع ثانية، وقد دُعينا إلى اجتماع خاص بالأعضاء لشرح موقفنا ولتوضيحه لكي نبقي على الأقلّ أصدقاء من جديد. وبدأ الاجتماع بشكل جيّد ولكن في نهايته صُدّمنّا من أن الشخص الذي وثقنا فيه بشدّة هو نفسه الشخص الذي لم يفهمنا جيداً. وهو

أمر مؤلم. وبعد الاجتماع شعرنا بأنه ما زالت هناك رغبة في داخلنا لنكون أصدقاء مع المجتمع الأخوي ولكن ليس أكثر من ذلك.

ولك أن تتخيّل دهشتنا، ففي صباح اليوم التالي قاد هذا الرجل وزوجته سيارتهما لمُدّة ساعتين ليرونا وليسألوا العفو متًا، وعندما سمعنا أنّهما أتيا، لم نكن راغبين في رؤيتهما في البداية؛ فقد كنّا خائفين مما سنقول. ثم وافقنا على مضمض على التحدّث معهما. ولدهشتنا فقد قابلنا بأذرع مفتوحة وعيون تملأها الدموع. وقالا بأنهما آسفان، ومدّا لنا أيديهما للمُصافحة كعلامة لتحية السلام. يا لها من لحظة! فبعد كلّ ما فعلا بنا، وبعد عشرة سنوات من الكوابيس، وبعد كلّ ما مررنا به، كيف يُمكننا يا ترى أن نبدأ من جديد؟ حاولنا التراجُع ولكننا لم نستطع. فامتدت أيادينا لهما وسامحناهما... وفي غضون شهر قليلة رجعنا إلى مجتمع برودرهوف الأخوي.

ومُجرّد عودة "جم" و"كارولين" إلى بيتهما (أي جماعة الحياة المشتركة) لم يمض وقت طويل حتّى شعرا أنّهما أيضاً لم يكونا خاليين من الذنب. فتكتب "كارولين":

كان علينا أن نرى الجانب الآخر من القصة - وهو إنّنا شخصياً كنّا عنيدين ومُتشبّثين برأينا. وكان كبريائنا عائقاً أمام المُصالحة.

إن الخلافات التي يكون فيها طرف واحد على حق هي معدودة جداً. ففي كبريائنا لا نرى غير أخطاء الآخرين وتتعامل عن أخطاءنا. وإن لم تتعلّم التواضع، فلا نقدر أن نغفر للآخرين أو أن يُغفر لنا. نعم، هذا مؤلم، ولكنّه جزء محتوم ولا مفر منه في الحياة. فالمغفرة تمكّننا على تجاوز عقبة الألم، حتى لو اعترفنا بالألم، وتأخذنا إلى الفرحة الناتج عن المحبة. يكتب "م. سكوت بك M. Scott Peck":

لا يوجد سبيلاً للعيش حياة نفيسة ما لم نكن راغبين لتتألم مرة بعد أخرى، وتذوق الكآبة واليأس، والخوف والذعر، والأسى والحزن، والغضب، وعذاب المغفرة، والحيرة والشك، والانتقاد والرفض. فالحياة الخالية من التمرّق بالمشاعر لن تكون مجدية لنا فحسب بل للآخرين أيضاً. فلا يمكننا أن نشفي الآخرين بدون الاستعداد لأن يجرحنا الآخرين.

إنّ المُجتمع الحقيقي الذي يشمل العائلة والأصدقاء والزملاء يتطلب منّا أن يُعرّي بعضنا روحه لبعض. ويمضي "سي أس لويس" إلى ما هو أبعد من ذلك ليقول: "معنى أن تحب، هو أن تكون قابلاً للإنجراح. فالمكان الوحيد خارج السماء الذي يُمكنك فيه أن تكون آمناً تماماً من كل الأخطار والإزعاجات الناجمة عن المحبة هو الجحيم."

تُظهر لنا قصة "جم" و"كارولين" أنّ بمقدور الغفران أن يعيد الناس بعضهم إلى بعض. ويمكن للأوقات العصيبة، إذا تمّ التغلب عليها، أن تؤدي إلى محبة أعظم. فهي بمقدورها أن تقوي ولا تضعف رابطة الوحدة والوئام.

العُفْران في الزواج

يسألني الناس ما نصيحتي لزوجين لديهما مُشكلات في علاقاتهما، وعادة ما أجيب: صلُّوا واغفروا. وأقول للشباب الذين أتوا من بيوت كثر فيها العنف: صلُّوا واغفروا. ومرّة أخرى أقول لكلّ أمّ تعيش بمفردها دون أيّ دعم عائليّ: صليّ واغفري.

الأم تريزا Mother Teresa

إنّ لم يغفر الزوج والزوجة لبعضهما يومياً سيتحوّل الزواج إلى جحيم حقيقي، وهذا ما رأيته دائماً خلال السنوات العديدة التي قضيتها في المشورة الكنسية للمُتزوِّجين. ورأيت أيضاً أنّه يُمكن حلّ أعقد المشكلات بكلمتين بسيطتين ألا وهما: "أنا آسف".

قد يكون من الصعب على الشريك أن يطلب من شريك حياته السماح. إذ يتطلّب الموضوع إتضاعاً واعترافاً بالضعف والخطأ. ولكن هذا هو ما يُنَجِّح الزواج ويمنحه الصحة: إذ يعيش كلا الشريكين في إتضاع مُتبادل مُدركين تماماً اعتمادهما الداخلي على بعضهما البعض.

لقد إعتاد "ديتريش بونهوفر Ditrich Bonhoeffer" وهو القس الألماني الشهير الذي سجنه هتلر في الثلاثينيات من القرن الماضي بسبب معارضته للنظام النازي- إعتاد أن يتحدّث مع أعضاء الجماعة الصغيرة التي كوّنوها عن جسامه الحاجة إلى "عيش مشترك في ظلّ العُفْران،" لأنّه بدون العُفْران لا يُمكن أن تنجح أيّة شركة إنسانية ولاسيما الزواج. وكتب مرّة يقول: "لا تُصروا على حقوقكم (...). ولا يلوم بعضكم بعضاً، ولا يحكم أو يدين بعضكم بعضاً، ولا يتصيّد بعضكم أخطاء بعض، ولكن فليقبل بعضكم حال بعض كما هو، وليساح بعضكم بعضاً كل يوم ومن أعماق قلبه."

لم نفتقر أنا و"فيرينا" طوال فترة زواجنا التي استمرت ثلاثة وخمسين عاماً إلى أية فرصة للعُفْران. فبعد مُضيّ أسبوعٍ على زفافنا تقابلنا مع أوّل أزمةٍ في حياتنا. فقد كانت أختي قد صنعت لي، وهي فنّانة، مجموعة جميلة من الأطباق، ودعونا والديّ وأخواتي على العشاء في شقّتنا الجديدة، وكنتُ أنا و"فيرينا" قد قضينا طوال فترة بعد الظهر في إعداد الطعام، وقمتُ أنا بإعداد مائدة الطعام مُستخدماً الأطباق التي صنعتها أختي. ووصل أهلي وجلسنا لنأكل معاً، ولكن فجأةً أُنهار طرفي المنضدة، (فعلى ما يبدو أنّي لم أقمُ بضبط المنضدة جيداً)، وغطّى الطعام والصحون المكسورة الأرضيّة، وخرجت زوجتي من الحجرة والدموع تملأ عينيها. ومضت ساعات طويلة قبل أن تتمكّن زوجتي من أن تغفر لي فعلتي هذه، وهي الآن تضحك على تلك الحادثة التي صارت مع الوقت نُكتةً عائليّةً معروفةً.

مع الوقت أصبح لدينا ثمانية أطفال، وكانت هناك أسباب كثيرة للخلافات، وفي كلّ مساء كانت "فيرينا" تقوم بإعطاء حمّام للأطفال وإلباسهم بيجامات نظيفة، ثمّ ينتظروني على الكنبه مع كُتُبهم المُفضّلة. وكُنت عندما أرجع من عملي إلى المنزل، يرغب الأولاد في اللعب معي، وينتهي بنا الأمر في بعض الأحيان بقصف بعضنا البعض بالحشائش في الحديقة، وما زالت "فيرينا" تتذكّر الساعات التي قضتها لتُريل بُقع الحشيش والطين مع شيء من التذمّر!

عانى مُعظم أطفالنا من الربو عندما كانوا صغاراً، وكثيراً ما أيقظونا طوال الليل تقريباً بسبب كُحْتهم وأزيز تنفّسهم، وهذا كان سبباً في كثير من المشكلات بيننا خاصّةً عندما كانت "فيرينا": تُذكّرني أنّه عليّ أحياناً أن أترك النوم والذهاب إليهم تماماً مثلها لأطمئنّ عليهم.

كُنّا نختلف كثيراً حول موضوع العمل الذي كنتُ أقوم به أيضاً. إذ كُنتُ أقضي أيام طويلة في الطُرُق بسبب عملي كمندوب مبيعات لدار نشر مُلكها، ولأنّ دار النشر كانت تُغطّي منطقة كبيرة في غرب ولاية نيويورك مثل مدينة بفلو وروتشيستر وسيراكيوس، فلقد كُنتُ أقضي ما بين ستّة إلى ثمانية ساعات في قيادة السيارة. لاحقاً، وبعد أن أصبحتُ راعياً كنسياً لجماعتنا - المجتمع الأخوي، صار عليّ الذهاب كثيراً إلى كندا وأوروبا وحتى إفريقيا. وكثيراً ما كنتُ أدافع عن سفري إلى تلك المناطق قائلاً إنّ تلك السفرة "هامّةٌ للغاية." هذا التأكيد لم يكن يُهدئ كثيراً من روع زوجتي التي كان عليها إعداد حقائب السفر والتكيّف مع جدول أعمالِي المكثّف، وغالباً ما كانت تبقى في البيت مع الأولاد.

ثم يأتي وقت جريدة الـ "نيويورك تايمز". فبعد قضاء يوم شاق في السياقة، لم أرى الضرر في الاضطجاع وقراءة الجريدة لبضع دقائق في الوقت الذي كان أولادي يلعبون حواليّ فرحين، وكنتُ أشدّد على هذا الرأي بقوة. ولم يسعني رؤية أنانيتي هذه إلا فيما بعد.

وغالباً ما أفكر متسائلاً: "كيف كان سينتهي الأمر بزواجنا إذا لم يتعلم بعضنا مساحة بعض كل يوم ومنذ البداية؟" ونحن نعلم بأن كثير من الأزواج ينامون معاً في نفس الفراش ويعيشون في نفس البيت، إلا أنّ بعضهم يظلّ نفسياً بعيد عن بعض لمسافة أميال، لأنهم قد بنوا جداراً من الكراهية بينهم. قد تكون الحجارة التي بُني بها هذا الجدار صغيرة للغاية - نسيان عيد الزواج على سبيل المثال، أو مجرد سوء فهم بسيط، أو اجتماع عمل تقدّم على نُزهة عائلية طال إنتظارها. غير أنّ بمقدور الانقسام الناتج الذي صنعه أن يؤدي إلى كارثة.

بإمكاننا إنقاذ كثير من الزيجات لو أدركنا فقط بأنّ الناس غير كاملين. فكثيراً ما يفترض الزوجان أنّ العلاقة "الجيدة" هي العلاقة التي تكون خالية من الجدال والاختلافات. وعندما يعجزون عن تحقيق مثل هذه التطلعات الغير واقعية، تخيب آمالهم، ولا تمضي فترة طويلة حتى تراهم ينفصلون على أساس "عدم الملائمة".

إنّ النقص البشري وعدم كماله يعني أننا سنرتكب أخطاءً وسيجرح بعضنا بعضاً بمعرفة أو بغير معرفة. وقد لمست في حياتي الشخصية بأنّ الحل الوحيد والأمن لإخفاقاتنا هو المغفرة، وسبعين مرة في اليوم إن لزم الأمر. يكتب "سي أس لويس C. S. Lewis" قائلاً:

كيف يمكننا أن نغفر استفزازات الحياة اليومية، وأن نستمرّ في العُفْران للحماة المُتسلّطة والزوج الأمر والزوجة المُتدمّرة والابنة الأنانية والابن المخادع؟ أعتقد أنّ الجواب كامن في أنه علينا أن نتذكر باستمرار نوع الموقف الذي نريد اتخاذه في حياتنا، وأيضاً أن نعني ما نردده في صلاتنا كل ليلة، "أغفر لنا خطايانا كما نحن أيضاً نغفر لمن أخطأ إلينا".

إنّ القوة القديرة التي تحملها المغفرة موصوفة بصورة رائعة في قصة أهل زوجتي "هانز و مارجريت ماير Hans and Margrit Meier". فقد كان "هانز" رجلاً صلب الإرادة وتسبّب عناده في اقتراقهما في علاقتهما الزوجية ولأكثر من مرّة. فقد سُجن بعد مُضيّ شهور قليلة على زواجهما في عام 1929 لأنّه رفض الالتحاق بالجيش السويسريّ وذلك لأنّه من المتحمسين للمبدأ المضادّ للحرب والجيش.

وبعد إطلاق سراحه بفترة قصيرة إفترق الزوجان ثانية. وكان السبب يعود إلى أنّ "مارجريت" قد اكتشفت جماعتنا التي تعيش حياة مشتركة وأرادت الانضمام إليها. أما "هانز" ذو التيار الديني والاجتماعي والذي كان له أفكار مُختلفة عن الحياة المشتركة لم يرغب في الانضمام. كانت "مارجريت"

قد ولدت طفلها الأول منذُ فترة قصيرة وتوسّلت إليه الانضمام للمجتمع الأخوي ولكنّ "هانز" ليس من النوع الذي يلين عوده بسهولة. ومَرّت شهور عديدة قبل أن تفلح في إقناعه بالمجيء. وبعد مُضيّ ثلاثين عاماً وإنجاب أحد عشر طفلاً، إفترقا مرّة أخرى. في هذه المرّة كانا يعيشان في أمريكا الجنوبيّة، وكان ذلك في عام 1961، وهو وقت اتسم بحسامه الحيرة والجيشان الداخلي للمجتمع الأخوي. وأصبح "هانز" في طبيعة مع زوجته وعن المجموعة لأنّه لم يستطع رؤية أخطائه ولا مُساحمة الآخرين على أخطائهم في حقّه. ومن ثم انتقلت "مارجريت" والأطفال إلى مجتمعنا الأخوي في الولايات المتحدة. أمّا "هانز" فاشتغل واستقر في مدينة بوينس آيرس وبقي فيها طوال الأحد عشر عاماً التالية. لم يكن لديه ما يشير على أنّه يحمل ضغينة، ولكن لم يكن هناك أيضاً ما يشير على شفاءه. وتدرجياً نشأ جدار من البغض والامتناع بينهما وصار يهدد بالانفصال المديد. وعندما تزوّجت من "فيرينا" في عام 1966، لم يحضر "هانز" والدها حتى حفل الرّفاف، وبدأ أطفالنا يكبرون بدون جدّ من طرف أمّهم.

في عام 1972 سافرتُ إلى مدينة بوينس آيرس مع "أندرياس" أخي "فيرينا" في محاولة لتتصالح بشكل أو بآخر مع "هانز"، ولكنّه لم يُدِ اهتماماً بذلك - لاسيما في البداية. ولم يردّ شيئاً سوى أن يحكي لنا ما يخصّه من القصّة، وأن يُعلمنا مرّة أخرى بعدد المرّات التي تعرّض فيها للأذى. وفي اليوم الأخير من رحلتنا حدث تغيير. إذ أعلن أنّه سيزورنا في الولايات المتحدة، وأصرّ على أن زيارته ستكون لمُدّة أسبوعين فقط، لا أكثر، وأكّد على حقيقة أنّه سيشتري تذكرة عودة، ولكن هذه بالحقيقة كانت البداية.

وعندما تحققت الزيارة فعلاً، خاب ظنّنا. إذ أنّ "هانز" ببساطة لم يستطع أن يغفر. فقد كُنّا قد بذلنا كل الجهود لتُريل صعوبات الماضي واعترفنا بذنوبنا في الأحداث التي أدّت إلى عُربته الطويلة، ولكنّنا لم نصل لشيء. ففي قرار فكره، عرف "هانز" أن الشيء الوحيد الذي يفصل بيننا وبينه هو عدم قُدرته على العُفران، ومع ذلك لم يقدر عليها

ثم أتت نُقطة التحوّل. ففي وسط أحد اجتماعات الأخوية، استجمع عمّي "هانز هيرمان"، الذي كان على مشارف الموت بسبب إصابته بسرطان في الرئة، كلّ قُوّته، وقام واتّجه نحو "هانز"، وقرع على صدر "هانز" قائلاً: "يا "هانز"، التغيير يجب أن يحدث هنا!" وقد كلّفت هذه الكلمات "هانز هيرمان" جهداً بليغاً لأنّه كان يحصل على أوكسجين إضافي من خلال فتحتي الأنف وبالكاد كان قادراً على التكلم. هنا صار "هانز" أجرد تماماً. فذابت برودته، وقرّر وقتئذٍ هناك أن يغفر - ويعود. وبعد أن سافر إلى الأرجنتين لتصفية أعماله، عاد آنذاك لينضم إلى زوجته "مارجريت" وإلى المجتمع الأخوي، وسرعان ما شهدنا بأنّه عاد إلى نفس الهمة الأخوية المتفانية والحيوية مثلما كان منذ عدّة عقود مضت.

لم يمَسَّ "هانز" طوال السنوات التي قضاها بعيداً أية امرأة أخرى. وأثناء تلك العقود الطويلة كانت "مارجريت" تُصَلِّي يومياً من أجل عودة زوجها. وعلى كل حال، فقد أُنجرح كلاهما، واستغرق الأمر وقتاً طويلاً لإعادة بناء ثقة بعضهما في بعض. وبصفتي زوج ابنتهما، لا يسعني إلا أن أشهد بأبنيهما نجحاً أخيراً؛ فقد عاشا معا في محبة وفرح وكذلك مع أولادهما وأحفادهما إلى أن توفت "مارجريت" بعد ستة عشرة عاماً من ذلك الوقت.

السؤال الذي يطرح نفسه هو بأننا حتى لو غفرنا لمن قد جرحنا كثيراً، أليس من الطبيعي أن نظل ناقمين جراء الذي فعلوه بنا؟ هذا سؤال صعب، ولكن ربما يتعلق الموضوع بمشاكلتنا من أننا نتخذ نظرة بشرية إزاء العدالة أكثر من المغفرة. فالغفران أكثر من مجرد عدالة مثلما وجدته "هانز" و "مارجريت". إنه عطية. وهذا قد يبدو أمراً غير منطقي وغبي بالنسبة لهؤلاء الذين لا يمكنهم قبوله.

تُظهر لنا قصة أهل زوجتي أنه يمكن شفاء حتى الفراق الطويل. ولكن هل من الممكن للزواج الذي دمرته الخيانة الزوجية أو التعامل الوحشي أن يتم إصلاحه وشفاءه بالكامل؟ من السهل أن نقول لا، ولكن وفقاً لخبرتي يمكن أن يتغير معظم الناس، إذا أعطيناهم الوقت الكافي، والتحفيز، والدعم. فالمحبة تُصالح وتغفر. وحتى لو حتمت الظروف انفصلاً مؤقتاً إلا أن الحب الوفي هو السبيل الوحيد للشفاء ولم شمل العائلة من جديد. أما الذين يُطلقون ويتزوجون ثانية، فهم يُعلقون بذلك الباب أمام أية فرصة للمصالحة في المستقبل.

قد يستغرق الصدء في الثقة بسبب الخيانة الزوجية سنوات للشفاء بالتأكيد. في البداية قد يكون من المهم بالنسبة للزوجين أن يعيشا مُنفصلين، ويحصلوا على مشورة من مُتخصصين، أو مساعدة أقل رسمية، وفي ظل إرشاد شخص يثق كلاهما فيه. ولا بد أن يكونا راغبين في العمل على إعادة بناء ثقتهما حتى يستعيدا زواجهما.

تزامنت بداية كتابتي لهذا الكتاب مع تقديمي للمشورة لزوجين انهار زواجهما بسبب الخيانة الزوجية. فقد تزوج "أيد و كارول Ed and Carol" منذ تسع سنوات. وقد عانى "أيد" من مشكلات في إدمان الكحوليات حتى قبل زواجه، مما تسبب في كثير من التوترات في زواجهما منذ البداية. وعلى الرغم من أنهما كانا يعيشان تحت سقف واحد، إلا أن بعضهما ابتعد نفسياً عن بعض أكثر فأكثر. وبدأ "أيد" علاقة سرية مع جارتته بعد مضي بضع سنوات من زواجهما. ووجدت "كارول" نفسها تشعر بالغم والكآبة أكثر فأكثر، غير أنها لم تعرف سبب ذلك.

كان "أيد" و"كارول" قد انضما إلى مجتمع برودرهوف للحياة المشتركة في التسعينيات. وبعد أيام معدودة من مجيئهما أخبر "أيد" زوجته بعلاقته مع جارتها. فلم يتح له ضميره المُذنب الشعور بالسلام، ووجد نفسه لا يستطيع إخفاء هذا السر أكثر من ذلك. أما "كارول" فانصقت. فقد كان في داخلها شعور بأن هناك شيئاً ما خطأ منذ زمن طويل، ولكنها لم تكن تتخيل أن تكون مخدوعة بهذا الشكل. واخبرت "أيد" في انفعالها - المفهوم - أن زواجهما انتهى ولن تغفر له أبداً.

لم يكن من الصعب التعاطف مع مشاعرها، ولكني علمت من البداية أنه إن لم تتمكن من العُفْران لـ "أيد" فلن تُشفى جراحاتها العميقة التي تسبب "أيد" فيها. واقترحت عليها أنها إذا سلّمت نفسها فريسة إلى دوامة الشعور بالهزيمة والاختداع، فسيؤدي ذلك بدوره إلى جرّ بعضهما بعيداً عن بعض أكثر فأكثر، وأيضاً سيؤدي إلى استبعاد إمكانية رجعتما ثانية معاً وإلى الأبد.

وفي الوقت نفسه نصحتُهما بالفراق الفوريّ مع ضمان تقديم المشورة لكلا الطرفين. فهذا الانفصال سيساعد "أيد" و"كارول" على التعامل مع مشاعرهما وتصفيتهما كل على حدة. فلم يكن هناك أي "إصلاح سريع"، إذ أن هذه العملية مؤلمة وتتطلب وقتاً طويلاً. ويلزمنا هنا بناء العلاقة من جديد ومن القاع إلى السطح.

وتفارق "أيد" و"كارول" لعدة شهور، ولكنهما كانا يُجرزان تقدماً عجبياً في علاقتهما أثناء هذه المدة. فشرعوا في البداية بالاتصال فيما بينهما بالتلفون فقط. أما فيما بعد، فأخذت مكالمتهما تنمو وتطول ويطغي عليها طابع الارتياح النفسي، ومن ثم بدءا حتى بتبادل الزيارات. كما توقّف "أيد" عن شرب الخمر، وتدرجياً صار الفرح والتحرر اللذان يتبعان عادة الاعتراف بالذنب محلّ عذاب شهور قضاها وحيداً في تفحص روحه وقلبه. أما "كارول" فقد مرّت بأوقات عسيرة وصارعت فيها، ولكنها كانت شغوفة أن تبدأ من جديد - لا فقط من أجل أولادها، الذين بقوا معها عندما رحل "أيد" من المنزل، ولكن من أجل نفسها هي أيضاً.

وبدأت تشعر بحبّ جديد لـ "أيد". والأهم من ذلك كله هو أنها رغبت في أن تسامحه كلياً. وبمجرد أن أدركت أنها أخطأت أيضاً في هذا الأمر، استطاعت أن تتقابل مع "أيد" عند هذا المستوى. والآن وبعد مضي عشرة شهور، اجتمع شمل "أيد" و"كارول" مرّة أخرى. وفي اجتماع عبادة خاص عُقد للاحتفال بإعادة اكتشاف زواجهما، أعلننا جهاراً، أمام الجماعة الأخوية كلها، عن مغفرتنا أحدهما للآخر. بعدئذ، وبوجهين باسمين، تبادلنا خاتمي زواج جديدين.

لم يكن "أيد" و"كارول" أوّل زوجين أقوم بتقديم المشورة لهما من الذين قد مرّوا من خلال آلام الخيانة الزوجية، ورُبّما لن يكونا آخر زوجين. ومع ذلك، فأنا على يقين من أن غيرهما من الأزواج

الآخرين سيجدون القوة للتغلب على هذه العاصفة، مادام كلا الزوجين راغبين في السعي إلى تجديد العلاقة بينهما على أساس المغفرة والمحبة المتبادلة.

الغفران للأب - أو للأم - الذي أساء معاملة أولاده

يا له من تحرر حينما ندرك عدم حاجتنا لأن نكون ضحايا لماضيينا بعد الآن، ولكن هناك خطوة أعظم من عملية الإدراك هذه... إنها المغفرة. فالمغفرة هي ممارسة المحبة وتطبيقها مع ناس يفتقرون إلى المحبة. إنها تحررنا من دون أن نرتجي شيئاً بالمقابل.

هنري ج. م. نووين Henri J. M. Nouwen

يُصارع كثيرون اليوم لكي يجدوا شفاءً من ماضيهم الفظيع. فقد تعرّضت نفوس لا حصر لها لجروح عميقة بسبب إساءة مُعاملتهم وهم صغاراً، سواء كانت هذه الإساءة نفسية أو بدنية أو - أسوأها - جنسية. فالبرامج التلفزيونية تبين ذلك وتتداول المجلات والصحف هذه المواضيع على صعيد يومي، فيعرض برنامج تلو الآخر ومن خلاله نُشاهد الناجين من تلك الإساءات يكون قصصهم المؤلمة للجماهير المنهكة والغير المُبالية بما يحدث معهم. ومع ذلك، يبدو أنه مهما قاموا به من مكاشفات نفسية فلا تجلب لهم الشفاء الذي يتوخونه. فكيف يا ترى يُمكنهم أن يحصلوا على الشفاء؟

نشأ "رونالد Ronald" في منطقة سلاسل جبال "الأبلاش" في مزرعة بغيري ولاية بنسلفانيا. وكان يسكن ما يقرب من أربعين فرداً من الأهل والأقارب في منزل واحد، محاولين اتزاع لقمة العيش عن طريق زراعة أرضهم. واتسمت طفولته بالوحشية. فكان يتحدث عن أولاد أعمامه الذي حاول بعضهم

تعليق بعض، وعن جدّة أطلقت مرة عياراً من الملح الصخري على الأولاد الغير مطيعين مستعملة بندقية.

وكان والد "رونالد" شخصاً ذكياً للغاية، وقد ترك المزرعة مع أولاده ورحل إلى جزيرة لونك أيلاند في ولاية نيويورك حيث وجد عملاً. وتحسّنت أحواله الماديّة ولكن لم تتحسنّ علاقته. فقد تركته زوجته، وصار يضرب أولاده بصفة مُستمرة وفي بعض الأحيان بقسوة. عاش "رونالد" في خوف دائم من العُنف الذي ينتظره كلّ يوم بعد عودته من المدرسة إلى البيت.

وفي أحد الأيام تعرّض والده لحادث سيّارة فأصيب بإصابات بالغة. فقد كُسرت رقبته وأُصيب بالشلل من رقبته إلى أسفل. وبعدها كان الطاغية في البيت، أصبح مُقعداً كسيحاً يعتمد بالكامل على عناية الآخرين في احتياجاته اليوميّة.

ومقاييس شاب لم ينضج تماماً، كان لـ "رونالد" كلُّ الحقّ في هجر أباه. فمن وجهة نظره، لماذا كان يجب عليه أن يبقى معه ويعتني بذلك الرجل الذي أفسد حياته؟ ولكنّ الذي حصل أنه لم يرح من جواره مطلقاً، وعلى الرغم من توافرّ العون من القائمين على التمريض والأطباء لحالة والده العاجز، إلّا أنّ "رونالد" أخذ على عاتقه مسؤوليّة العناية بأغلب احتياجات والده. فكان يُسدّد احتياجات والده اليوميّة من غسيل وتبديل ملابس ومساعدته في أداء التمارين لأطرافه العاجزة التي ضربته سابقاً بلا رحمة وأحياناً إلى درجة الإغماء. وغالباً ما كان يأخذه للخارج على الكرسيّ المُتحرّك ويتحدّثان معاً عن المعارك النفسية التي مرّ كلاهما بها، والذين ما زالوا يخوضانها.

فما زالت أشباح الماضي تُهاجم "رونالد" من وقت لآخر، ولكنه يقول إنّه أخيراً وجد مقداراً من السلام الذي افتقده بشدّة في طفولته. والأهم من كل شيء آخر، هو أن خدمته الحبيّة تشهد عن المغفرة والشفاء الذين يعيشانها كل منهما الآن.

عاني "كارل كيدرلينج Karl Keiderling"، (الذي كان فرداً من أفراد جماعة المجتمع الأخوي للحياة المشتركة والذي كان قد توفي عام 1993)، من طفولة قاسية. فقد كان الابن الوحيد لعائلة ألمانيّة من الطبقة العاملة. وسادت سنواته الأولى سُحب الحرب العالميّة الأولى والدمار الاقتصاديّ الذي تبعها. ثم ماتت أمّه حين كان في الرابعة من عمره، ولاحقاً ماتت زوجة أبيه حين كان في الرابعة عشرة. وبعد موتها وضع الأب إعلاناً في إحدى الصحف مستثنياً فيه ابنه "كارل" عمداً، قائلاً: "أرمل لديه ثلاث بنات يبحث عن مُدبرة منزل مع إمكانيّة الزواج منها في المستقبل".

تقدّم عدد كبير من النساء له، وفي النهاية قرّرت إحداهن أن تبقى. ولم تكتشف وجود الصبي في البيت إلا بعد حين، فلم تغفر تماماً لوالد "كارل" إخفائه هذا الأمر عنها. أما طعام "كارل" فكان دائماً أقلّ من طعام بقية أفراد الأسرة، وكثيراً ما كانت تتشكى منه.

وكان والد "كارل" صامتاً في وجه قسوة زوجته الجديدة وسلوكها الوحشي، ولم يفعل أيّ شيء يُدافع به عن ابنه. وبالحقيقة، فقد انضم إليها في عملية إساءة مُعاملة ابنه، وكثيراً ما كان يُضربه بالحزام الجلدي مستخدماً ناحية القفل النحاسي. وعندما كان "كارل" يحاول أن يحمي نفسه، كان يجد أبيه يزداد غضباً ويضربه على رأسه وعلى وجهه.

ترك "كارل" المنزل مُجرّداً أن أُتحت له الفرصة. وبعد أن أُنجذب إلى الحركة الشبابية التي اجتاحت البلد بعد سنين الحرب، التحق بصفوف المُلحدين، والفوضويين (السّاعين لإلغاء الحكومات والاستبداد)، وغيرهم من الذين أحسّوا بضرورة تغيير العالم، والنضال لضمان عدم عودة المجتمع على ما كان عليه من تعسف أبداً. وصار يتجوّل في أرجاء ألمانيا حتّى وجد مجتمع برودرهوف للحياة الأخوية المشتركة بطريق الصدفة، عندها شعر في الحال أنّه بين أهله، وقرّر أن يبقى بها. واندج تماماً بكامل الحماس والغيرة في حياة الجماعة، ولكنّ خبرات الطفولة لم تتركه بسلام. فقد شكّلت كراهيته لأبيه حملاً ثقيلاً على قلبه. لذلك قرّر أخيراً الذهاب إلى جدّي أبرهارد آرنولد (الذي كان راعياً روحياً للمجتمع الأخوي آنذاك)، ليفضي أمامه مكنونات صدره من مشاعر الغضب والكراهية.

كان جوابه عجبياً: فقد اقترح جدي عليه أن يكتب لوالديه رسالة ويطلب منهُما العفو والغفران، لتصحح الأوقات التي آذى فيها هو مشاعرهما عن عمد، أو سبّب فيها حُزنهما. كما أخبر "كارل" لينظر فقط إلى ذنوبه هو بحق الآخرين، لا إلى ذنوب الآخرين بحقه. تفاجأ "كارل" من جوابه في البداية، ولكنه أنتصح بنصيحة جدي أخيراً. واستلم بالفعل والد "كارل" الرسالة، ولكن بالرغم من أنّه لم يعتذر شخصياً عن الأخطاء الفظيعة التي ارتكها بحق ابنه "كارل"، إلا أنّ الأحمال التي كانت تُثقل قلب "كارل" زالت. ولأوّل مرّة في حياته وجد السلام والراحة، وأنهى ذلك الفصل المؤلم من حياته، ولم يعد يشكي ثانية من طفولته أبداً.

تخلّبت "ماري Mary" وهي صديقة للعائلة على ذكريات مؤلمة من إساءة المُعاملة بطريقة ماثلة، فتقول:

توفيت أُمِّي في سن الثانية والأربعين تاركة وراءها أبي وثمانية أطفال تتراوح أعمارُهُم من سنة إلى تسعة عشر. كان فقدانها ذا وقع مأساوي على عائلتنا، فقد أُنهار أبي نفسياً في الوقت الذي كُنَّا فيه بأشد الحاجة إليه. وحاول التحرُّش بي وبأختي، فبدأت أمقت وجوده وكرهته.

انتقل والدي إلى منزل آخر، أما أنا فذهبت إلى مدرسة في أوروبا ولم أره ثانية لمدَّة سبعة سنوات. إلا أنني تمسكتُ بمشاعر الكراهية نحوه، وصارت تلك المشاعر تستفحل في داخلي.

عندما رجعت إلى أمريكا الجنوبية، حُطبت لشاب أحببته، كان من أصدقاء الطفولة. وطلب مني أبي أن أقبله، ولكنِّي رفضت. فلم أكن أرغب في مقابلته على الإطلاق. أما خطيبي فقد أصرَّ على أن أقابل والدي. وقال إنَّه ليس بإمكانني رفض مثل تلك المُقابلة، وإنَّه يجب التجاؤب مع اشتياق والدي للمُصالحة. وقد سبب لي أمراً كهذا صراعاً حقيقياً، وفي النهاية وافقت.

وتقابلنا مع أبي في مقهى. وقبل أن أقول أيَّ شيء توجَّه أبي نحوِّي وطلب مني العُفْران والسماح وهو مكسور الخاطر. فتأثرت للغاية، وأدركت أنني لا يمكنني التمسُّك بكرهيتي لأبي أكثر من ذلك.

يُعدُّ الاعتداء على الأطفال من أصعب الأشياء التي يمكن عُفْرانها في العالم. فالضحية دائماً هو طفل برئ براءة كاملة، في حين أنَّ المُعتدي - دائماً شخص بالغ - مُذنب كلياً. فلماذا يغفر البريء للمُذنب؟ يظن خطأً أطفال كثيرون من ضحايا إساءة المعاملة بأن لهم حصة في الذنب: وبأنهم تقريباً كان لهم ضلعاً في تسبب هذه الإساءة أو حتى أنهم يستحقونها. وفي الواقع تأتي القوَّة المهيمنة التي يستخدمها المُعتدي على نفسية ضحيته من هذا المبدأ المضلل جداً للاشتراك في الجريمة، حتَّى بعد توقُّف الاعتداء البدنيِّ نفسه. إن ذلك هو جزء من عملية جعل الآخرين ضحايا. ولكن، ألا يتضمَّن العُفْران للشخص المعتدي لوم الضحايا على جُزء من الحدث؟

بالطبع لا يوجد ما هو أبعد عن الحقِّ من تلك المقولة. فالعُفْران ضروريٌّ ببساطة لأنَّ كلاً من الضحية والمعتدي - اللذان يعرفان بعضهما البعض في مُعظم الحالات - هم أسرى لظلمة مُشتركة. وسيظل كلاهما في تلك الظلمة حتَّى يفتح شخص ما الباب. إنَّ العُفْران هو السبيل الوحيد للخروج من تلك المُشكلة، فإذا اختار المُعتدي أن يظلَّ في الظلام، فلا يجب أن تتمسَّك نحن أيضاً بالظلام. ولكننا إن تركنا الباب مفتوحاً، فربَّما سيتبعنا المعتدي (أو المعتدية) ويخرج إلى النور.

تعرَّضت "كيت Kate" أيضاً، وهي جدَّة الآن في المجتمع الأخوي (مجتمع الحياة المشتركة) إلى سوء المُعاملة حينما كانت طفلة تعيش مع أسرتها خارج المجتمع الأخوي. إلا أنَّها بعدما واجهت شخصياً مشاعرها وأحاسيسها، وجدت أنها يمكنها التصالح مع أمِّها التي تغيَّر قلبها فيما بعد، فهاهي تقول:

ولدتُ في مدينة كندية صغيرة بعد الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة، وكُنْتُ أكبر طفلة في عائلتنا التي كانت ذات أصل روسي وتنتمي إلى طائفة المينونايت. Menonite. كُنَّا نعيش وسط مجموعة من الفلاحين في قرية، وكانت الإمكانيات التي نعيش بها بدائية للغاية.

وبعدما باع أبي مزرعتنا، كان عليه أن يذهب إلى المدينة يومياً ليعمل. وكانت وظيفة البناء الذي يقوم بها أبي تبعد خمسة وعشرين ميلاً، وبعد اثنتي عشر ساعة من العمل اليومي كان عليه أن يعمل أيضاً في قطعة أرض صغيرة بقت ملكاً لنا.

كُنَّا أربعة أطفال، كُنَّا بنات. وكانت هناك توترات مبطنة في عائلتنا، ولكننا لم نكن نفهم أسبابها. وعندما وُلد أخي بعدي بتسعة سنوات، ساءت الأمور. فقد أخذت أمي تتواجد في البيت بصورة أقل فأقل. ولم نفظن على الأمر وقتئذ إلا أنها كانت قد بدأت تشرب الكحوليات.

لم يمض وقتاً طويلاً حتى بدأت والدة "كيت" تعود إلى المنزل ثملة، وانفصل الوالدان لاحقاً. ولم تكن هناك حياة أبة عائلية جديدة بالذكر؛ فقد تمَّ إهمال، ولم يتمَّ غسل الملابس قط. وصار كل شيء ملقى على عاتق "كيت"، الفتاة ذات الثلاثة عشر عاماً. فتردف قائلة:

عندما دخل أخي الصغير جيمي المدرسة، كانت أمي بالكاد تتواجد في المنزل. ولم أتمكن قط من انجاز فرائض المدرسية في البيت، ولم أتعلم الكثير. ورسبت في الصف التاسع وكان عليّ إعادة السنة مرّة أخرى.

تركت أختاي الأصغر مني البيت، وحصلتا على وظيفة، وأجرا معاً شقة في المدينة. غير أنني بقيت في المنزل. فكان لا بد من وجود شخص ليعتني بالصغار. وبالرغم من رداءة كفاءتي في التدبير المنزلي، إلا أنهم تمكنوا على الأقل من الحصول على شيء يأكلونه.

ازدحمت في مدينتنا المستشفى الخاصة بالمُعاقين ذهنياً وبدنياً، وبدأت الحكومة في إطلاق المُعاقين الذي لا يحتاجون إلى رعاية كل الوقت لترعايم العائلات المحليّة. وكان هذا يُمثّل مصدر دخل جيّد لعائلتنا، وأخذت أمي رجلين كبار السن وسيدة لترعايمهم.

وكان عليّ التخلي عن سريري لأحد الرجال ومُشاركة السيّدة في سرير مُزدوج، ولم تكن تلك السيّدة تذوق النوم. وعندما أخبرت أمي أنني لا أستطيع تحمل الوضع وأنني أريدها أن تُعيدها إلى المستشفى مرّة أخرى لترعاها لم تُوافق أمي. فهي كانت تحصل على صك مالي يأتي لنا كلّ شهر. وقالت إنّها ستأتي إلى المنزل في المساء لتُساعدني. وقد جاءت فعلاً، ولكن أيّما مجيء! فقد قالت إنّها كانت تعيش في هذه الفوضى بسببي أنا.

في البداية لم أفهم معنى ما قالته، ولكنني علمت فيما بعد أن والديّ أرغما على الزواج لأنّ أمي كانت حبل بي. وأحياناً كانت تضربني بشدّة، وفي صباح اليوم التالي كانت تسألني عمّن فعل هذا بوجهي، وعندما كُنْتُ أجيبها أنّها هي التي فعلت، إذا بها تتهمني بالكذب.

وتوقفت "كيت" عن الذهاب إلى المدرسة في سن السادسة عشر لكي تُكرّس حياتها بالكامل لرعاية إخوتها. في هذا الوقت تقابلت مع "توم" زوج المستقبل وتزوجا بعد عامين، ولكنها ما زالت تتذكّر الذنب الذي شعرت به حين سألتها أمها مُتهمة إياها: "من الذي سيقوم بالعمل هنا في المنزل؟"، غير أنّ "كيت" لم تعرّها أية أهمية بل انتقلت من المنزل، وسرعان ما كُونت مع توم عائلة خاصة بهما. فتقول:

عند هذه المرحلة أردتُ أن أنسى أمي. فقد كانت لي عائلتي الصغيرة، فضلاً عن بيت أهل "توم". الذين كانوا يُجْبُون أطفالي جداً. وفجأة أرادت أمي الاتصال بي، ولكنّي خلقت العديد من الأعذار لكي لا أزورها. غير أنني حصلت على شيئاً من البأس والشجاعة لأردّ لها بعض ما فعلته معي. عند ذلك صار طلاق والدايّ نهائياً. وتوقّفت أمي أخيراً عن شرب الخمر، لأنّها أدركت أنّ ضغط الدم والخمر سيقضيان عليها لا محالة. ومع ذلك كنت مترددة وغير راغبة في الاتّصال بها. فالقضية كانت هي أنني لم أقدر أن أثق بها.

وبعد عدّة سنوات انضم هذان الزوجان إلى المجتمع الأخوي للحياة المشتركة. وكانت "كيت" بانتظار طفل آخر، ودعا "توم" والدتها لتشاركها ميلاد الطفل الجديد. فتتابع القول:

شعرتُ بأنني كالمجنونة ولم أعرف ماذا يجب أن أفعل تجاه هذا الأمر. فقلت لـ "توم": "عليك أن تتّصل بها وتخبرها ألا تأتي؛ قل لها ما تشاء. هذا طفلي أنا، ولا أرغب أن تشاركني هي به." كُنْتُ خشنة للغاية. وفي النهاية ذهبت إلى أحد الرعاة الروحيين في مجتمعي كنيستنا وقعدنا نتحدث عن الموضوع. فاستمع إليّ بهدوء ثم قال: "يجب أن تتوصلي إلى سلام مع والدتك." فقلت: "أنت لا تعرف أمي." فأجاب: "هذا ليس له علاقة بالأمر."

في النهاية أتت أمي. ولم تكن على ما يرام حين وصلت وكانت في حاجة إلى مزيد من الرعاية. ولم أسهّل الأمر عليها، ولكننا في النهاية استطعنا أن نتحدّث سوياً. بعدئذ وفي أثناء زيارتها الأخيرة وقبل أن تذهب إلى بيتها، شعرتُ أنّ هناك ما تودُّ هي أن تُخبرني به. والأكثر من هذا أنّها كانت راغبة في الاستماع إلى ما أقوله لها. لقد أرادت علاقة جديدة - وكُنْتُ ألهم عليها أنا أيضاً وقتئذ - وقد كانت مُصمّمة على إزالة أيّة عوائق تقف في طريق إقامة هذه العلاقة. وعند هذه المرحلة أدركتُ أنّها لم تُدر ما كانت تفعله في السابق، وعندما استطعتُ أن أغفر لها شُفينا جميعاً.

في جوّ بيتها المُحبُّ عاشت "كيت" في سلام مع والدتها. فقد استطاعت أن تسامحها عن جراح الماضي البليغة، ولكنها أدركت أمراً هاماً كذلك مفاده: أنّ أمها لم تكن وحدها التي افتقرت إلى

المحبة فحسب بل برودها هي شخصياً لعب أيضاً دوراً في القطيعة التي دامت بينهما سنوات عديدة.

ليست جميع الحالات بشأن القطيعة بين أحد الوالدين وأحد الأبناء بيّنة وخالية من التعقيد. فهناك قصة "سوزان" وهي امرأة من كاليفورنيا تأتي من ظروف مختلفة تماماً. فهي لم تكن قد عانت قط من إساءة معاملة فظيعة من قبل أهلها، ولكنها، مثلها مثل "كيت"، كانت تحمل بغضاً وكراهية تجاه والدتها لسنوات طويلة، وقد بدأت تجد الشفاء في علاقتهما فقط عندما استطاعت أن تغفر لها. فهاهي تقول:

كانت علاقتي بأمي صعبة للغاية منذ بداية إدراكي كطفلة. فقد كنت أخشى من انفجار غضبها ومن لسانها اللاذع والاستهزائي، ولم أكن أستطيع إرضاءها أبداً. وكنتيجة لذلك، كنت أشعر بالغضب تجاهها - كان غضباً غائراً ومكبوتاً ومخبأً في صدري جعلني أنغلق نفسياً عنها. وأخذت أمسك بالأم الظلم الذي صرْتُ أتذكره من أيام طفولتي، وأيضاً الكلام الخشن، وبعض الضربات (التي لا يُستحسن تذكرها). لذا أصبحت أدمر بشكل لا يوصف من توبيخها لي، وسرعان ما كنت أحس بأنني مرفوضة من قبلها.

وبكلمة أخرى، لم يكن لدينا علاقة صريحة ليفتح بعضنا قلوبهم لبعض. لذلك بدأت أتطلع إلى الكبار الآخرين الذين في حياتي وبصفة خاصة المُدرّسين. وكرهتُ أمي تعلُّقي بالمُدرّسين ولكنها لم تجد وسيلة تعبر بها عن ذلك. وأتذكر أنني تمنيت الابتعاد عن عائلتي وأن يتبّني أحد المُدرّسين. وأتذكر أيضاً المشاعر القوية بعدم الانتماء لتلك العائلة والتي كانت تحتاجني بشدة.

وبسبب لهفتي على أن أحظى برضا أهلي، حاولتُ أن أكون بنتاً "صالحة" وأخفي مشاعري الحقيقيّة. وحسبما كان مألوفاً فإنّ الأمر لم يساعدني كثيراً حينما لم يُسمح للأولاد بالرد على الكبار أو الإجابة بـ "لا" لطلب الأهل أو الكبار بصورة عامة. إذ كان من المفروض علينا نحن الصغار أن نكون مرئيين لا مسموعين.

وساء الأمر أكثر عندما دخلت سن المراهقة. فقد قمتُ بإيجاد سبلاً مأكرة أكثر فأكثر لأعبر بها عن غضبي وأفعل ما أشاءه. كما وجدت أيضاً طرقاً ملتوية عديدة مع أمي، والتي كانت بالحقيقة بمثابة "إنتقام" فيها. وأدّت أساليبي هذه بدرجة كبيرة إلى تورطي بعلاقة جنسية مع كاهن أبرشيتنا الذي كان له علاقة اجتماعية مع أهلي.

أخيراً انتهت تلك العلاقة، وتزوَّجتُ من رجل آخر، ولكني استمرّيت في خصامي مع أمي. إلا أنّ العلاقة كانت غريبة فعلاً، لأنني كنت ما أزال مستميتة على إرضائها.

ومرّت أمّي بفترات طويلة من الأزمات الجسديّة والنفسية على مدار كلّ تلك السنوات، ولكنّي استصعبتُ التعاطف معها أو إظهار الاهتمام بما يحدث لها. وأخيراً جاء يوم أُبديتُ فيه عطفاً وشفقةً عليها عندما كانت تخوض برنامجاً مُكوّناً من اثنتي عشرة مرحلة للتخلّص من إدمان الكحول. وقضينا أسبوعاً رائعاً معاً من مفاتحة القلوب، غير أنّ الأبواب سرعان ما وُصِدَتْ بيننا بعدئذ. ولمنّها على هذا، ولا أعرف الآن سبب ذلك.

في النهاية، تجلّى لي الأمر بأن شخصيتها الظاهرية التي تبدو قوية وواثقة النفس ومسيطرّة كانت مجرد غطاءً لشخص مزعزع نفسياً تنقصه الثقة بالنفس، حيث كانت تحمل أوجاعاً كثيرة من طفولتها الشخصية الغير آمنة (التي افتقرت إلى المحبة). وقد حاول كل منّا التقرّب من الآخر بأسلوبه الشخصي، غير أنّ كلانا كان يخشى من رفض الآخر له، لذلك أمست جهودنا سطحية، حتى في أحسن أحوالها. وأنا مستحيية من نفسي لأقول أنني انقطعت عن الكلام معها بعد أسبوعين.

غير أنّ باباً فُتِحَ لي بعد سنوات لاحقة عن طريق صديقة ظلّت تلاحقني لأسمع بعض الأشرطة لخطابات شخص يدعى "جارلس ستانلي". وعلى الرُغم من أنّي لم اسمع عنه من قبل، ولكنّي كُنْتُ أبحث عن إجابات لكثير من تساؤلاتي في الحياة، لهذا استمعت لها مع شيء من التحفظ. ولا أتذكر ما قاله بالضبط، ولكنّي سمعت تماماً ما كُنْتُ أحتاج إلى سماعه في ذلك الوقت. فبدأت عيناى تتفتّح لترى حصتي من الذنب والتقصير في علاقتنا، وحاجتي الماسّة لأسأل العفو والغفران منها من جهة، وأيضاً تقديمه لها من الجهة الأخرى.

ولم تمرّ مدة طويلة حتى زُرت أهلي. وعندما كُنْتُ بمُفردتي مع أمّي طلبت منها أن تغفر لي تصرّفاتي في الماضي، وأخبرتها بأنّي من جهتي قد ساحتها أيضاً. كما اعترفت أنّي كُنْتُ غاضبة منها طوال حياتي، حتى لو لم أكن أعرف سبب ذلك. لم تفهم السبب وراء غضبي منها، إلّا أنّها اعتذرت أيضاً عن الأذى الذي تسبّب في لي. وقالت: "ما حدث قد حدث، ولا يُمكننا تغييره؛ ولكن يجب علينا الآن أن نعيش يومنا وتتطلع إلى الغد." كان وقتاً لشفاء كل منّا. وسمح لي أن أفتح معها، وأكون صادقة، وأعبّر عن رغبات قلبي في المحبّة، وأن أكون محبوبّة على ما أنا عليه وليس على الذي كنت اعتقده أنني باستطاعتي تقديمه.

وبمُجرّد أنهما واجهتا مشاعر الغضب في أحشاء كل منهما، فقد تمكنت كل من "سوزان" وأمها من الشروع في بناء علاقتهما من جديد. وهُنَاكَ العديد من لهم قصص مُشابهة لتلك القصة ومُستمرّين بالمُعاناة بسبب عدم قُدرة الأطراف على الغفران. فلا يهم من نكون أو ماهية خلفياتنا. فالمهمُّ أن نتعلّم الغفران. وعندئذ سيمكن للأعاجيب أن تحدث. وستهبّج علينا الذكريات المؤلمة من حين لآخر لتُعكّر صفو العلاقات، ولكننا لا يُمكننا وللأبد أن نسمح لها بأن

تُغَيِّمُ سماء ما نرتثيه لحياتنا. وحتى عندما يكونُ النسيانُ مُستحيلاً (وهذا طبيعي)، فيجب أن نُؤمِّنَ بأنَّ العُفران ليس فقط مُمكنًا، بل وضرورياً أيضاً. وحينما نغفر، فإننا نجد الشفاء الحقيقي.

غفران الإنسان لنفسه

بدون تذوق المغفرة شخصياً، والتحرر من عواقب سيئاتنا التي اقترفناها، ستظلّ قدرتنا على العطاء مكبّلة بسبب سيئة واحدة لم نقدر أن نشفى منها قط؛ وسنبقى ضحايا عقباتها للأبد، ولا نختلف كثيراً عن ذلك الغلام الذي يتعلم مهنة السحر على يد ساحر، في قصة "تلميذ الساحر Sorcerer's apprentice"، ولكنه لا يعرف الوصفة السحرية التي تفك قيود السحر.

هانا آرينت Hannah Arendt

حتى لو غفر لنا الآخرون، هل يُمكننا أن نغفر لأنفسنا؟ هناك الكثير من الناس الذين يتعدّبون كثيراً بسبب ما فعلوه شخصياً، لدرجة أنّهم لا يُؤمنون بعد بإمكانية شفائهم، ولكن حتى تلك النفوس المهمومة لها أن تجد الرجاء.

لقد تحرّر "ديلف فرانشام Delf Fransham"، وهو من طائفة الصحابين Quakers الكنديين، من ماضيه عندما شرع يقوم بأعمال المحبة للآخرين، فقد حدثت له، بصورة غير متوقعة، مأساة غيرت مجرى حياته مثله مثل كثيرين ممن ذكرنا قصصهم هنا في هذا الكتاب. إلا أن قصته مختلفة إلى حدّ ما: فقد كان الشخص الذي يجب أن يغفر له هو نفسه.

تقابلت مع "ديلف" أوّل مرّة عندما كنتُ في الثالثة عشرة من عمري. فقد انتقل إلى مجتمع حياتنا المشتركة في أمريكا الجنوبيّة، وبدأ يُعلّم في مدرستنا. وكان هناك أحد عشر طالباً في فصلي وكُنّا متوحّشين، وبعد أيام قليلة من وصوله قررنا أن نضعه تحت الاختبار.

وفي يوم عاديّ في بارجواي حيث الرطوبة العالية والحرارة حوالي 100 درجة فهرنهايتية عرضنا عليه أن نأخذه في نزهة لنرى مدى صلابته. وبعد أن مشينا معه لمسافة عشرة كيلومترات على الأقل في وسط الأدغال والبراري والمستنقعات، وأخيراً رجعنا. غير أنه سقط بمُجرّد رجوعه إلى البيت مُصاباً بضربة شمس.

ظل "ديلف" في السرير لعدّة أيّام، ولكننا لم نعبأ به. فقد حصلنا بالضبط على ما كنا نرمي إليه: فأثبتنا أنه "جبان"، ولكننا اندهشنا. ففي اليوم الذي رجع فيه إلى المدرسة قال: "أيها الطلاب، دعونا نُجرب تلك النزهة مرّة أخرى." ولم نُصدّق ما قاله! فسلطنا نفس الطريق مرّة أخرى ولكنه، ومن غير ريب، لم يمرض هذه المرة. وفاز "ديلف" باحترامنا ودخل قلوبنا ووثقنا به منذ تلك اللحظة فصاعداً. وسريعاً ما اكتشفنا أنه أبعد ما يكون عن الجُبْن فهو لاعب رياضيّ موهوب. وأحببنا لعب كرة القدم معه.

وبعد عدّة عقود اكتشفتُ بالصدفة السبب الذي جعل "ديلف" يسكب محبّته وطاقته في عمله بمدرستنا. إذ تبين أنه كان قد فقد ابنه "نيكولاس" في ظروف مأساويّة للغاية. فقد ولد "نيكولاس" في أبريل 1951 عندما كانت أسرة "فرانشام" تعيش في جورجيا. وبعد عيد الميلاد عام 1952 بفترة قصيرة، كان "نيكولاس" يلعب خارج المنزل عندما جرى نحو الشاحنة التي كان والده "ديلف" يقودها راجعاً بها إلى الخلف نحو الطريق. وكانت الشاحنة محمّلة بخشب للوقود. ولم يرّ "ديلف" ابنه إلا بعد فوات الأوان.

كانت زوجته "كاتي" تتحدث آنذاك مع جارّتها داخل المنزل، فإذا بـ "ديلف" يدخل وابنهما مُلقى على ذراعَيْه. فتتذكّر قائلة:

لقد خرجتُ عن طوري واحتدمت غضباً، إلا أنّ "ديلف" أخذ يهدئي. وأخذنا طفلنا إلى الطبيب في كلاركسفيل، والذي كان أيضاً المحقق في أسباب الوفيات المشتبه بها، وشرحنا له ما حدث... ومن ناحيتي لم يخطر ببالي مطلقاً أية شكوك لأغفر لزوجي، لأنني علمت بأنني مقصّرة بنفس القدر. وحتى أنه لم يلمني، بل لام نفسه فقط. ووقفنا معاً جنباً إلى جنب في مواجهة تلك المحنة المحزنة.

ولم يستطع "ديلف" أن يغفر لنفسه، وظلّت تلك الحادثة تُلاحقه لسنوات. ومنذ ذلك الوقت غير أسلوبه في الحياة ليخصّص وقتاً للأطفال - ذلك الوقت الذي لم يقضه كفاية مع ابنه الذي قتله. وعندما أتذكر، أرى كيف كُنْتُ أجد عينيه كثيراً ما تتلأأ بالدموع، ولدي إحساس قوي الآن بأنه كان يرى ابنه فينا نحن الطلاب، أو يتخيله وهو يكره. وكان تصميمه على بذل نفسه للآخرين هو

الأسلوب الذي اعتنقه للتكفير عن تلك المأساة التي سببها بلا قصد. أنا مُقتنع أنّ هذا الأسلوب حفظه من الاستسلام للشعور بالذنب، وقد استعاد به حياته وأخيراً شعوره بالسّلام.

التَّحَقُّقُ "ديفيد هارفي David Harvey" الذي يبلغ الآن الثمانين من عُمره تقريباً بالجيش حين كان في سنّ السادسة عشرة قبل انتهاء الحرب العالميّة الثانيّة. وبعد ما قضى بقيّة سنوات الحرب في التدريب، تم نقله إلى أفريقيا ثم ألمانيا ثم إيطاليا وهونك كونك والصين والبحر المتوسط. في البداية استمتع بوقته في الجيش وبصفة خاصّة بالصدقات الحميمة التي شعر بها تجاه أصدقائه من الجنود، ولكنّ شيئاً ما قد حدث وغير حياته للأبد. فيقول:

قضيتُ جزءاً من خدمتي في كينيا لأقوم بتنفيذ مهام البوليس وتعبُّب "الإرهابيين". وكنتُ أقضي مُعظم الوقت في القيام بدوريات في مناطق الأدغال. وأثناء إحدى هذه الدوريات وقعتُ في حادث فظيع.

فبينما كنّا منبطحين أرضاً ومُنتظرين وصول عصابة من الإرهابيين، تعرضنا نحن أنفسنا إلى كمين مضاد. فصار كثير من الرمي الذي صاحبه الفوضى والارتباك وأيضاً سوء فهم للأوامر. وانقسمت الدورية إلى نصفين. فسار النصف الذي كنت فيه، في خطّ مُستقيم في طريق تسير فيها الحيوانات، في حين كان النصف الثاني يقوم بتمشيط الأحرار في كلا الجانبين. بعدئذ اجتاز النصف الذي كان في الأحرار جماعتي، وكنتيجة لذلك أخذ بعضنا يطلق النيران على بعض. ورأيت الأحرار تنفرج بالجهة المقابلة لي تماماً، فأطلقتُ النار، وأصبت أمر الدورية في رأسه. وتركنا مُهمّتنا وحملنا المُصاب على نقالة مؤقتة مصنوعة يدوياً من خشب الخيزران لمُدّة ستة عشرة ساعة عبر الأدغال ليحصل على الرعاية الطبيّة الذي كان في أمس الحاجة إليها.

وفي النهاية عُقدتُ جلسة قضائية عسكرية للتحقيق في الحادث، إلا أنني خرجت بريئاً تماماً من أي ذنب. أما ضميري، فلم يهيني سلاماً ولا راحة بال، لأنّي لم استطع أن أعرف ماذا حدث للأمر الدورية بالضبط. وبعد أربعة سنوات انتهت مُدّة خدمتي في الجيش ورجعت للحياة المدنيّة.

في البداية وجدتُ أنّه أمر صعب للغاية. ففي الجيش كان لي رقم لا اسم، وكنتُ مدرّباً على الإذعان للأوامر دون مُناقشة، وكنتُ أعتقد أنّ أيّ شيء يُطلب مني فهو سليم، الأمر الذي لا يتماشى مع الحياة المدنيّة، ولكن عادت الأمور لطبيعتها تدريجياً، وكان لديّ الوقت لأفكر في ذكريات عملي العسكري، وكان أول ما يخطر في بالي هو أنّي أطلقت النار على صديقي. أين هو يا ترى؟ وكيف كان حاله؟ هل نجا؟

وبعد عدّة سنوات بدأت استفسر وأتحرّى بنفسى عن مكان زميلي وصحّته، ولكنّي لم أصل لشيء. وتقابلت مع زملائي السابقين الذين قصّوا عليّ قصصاً متضاربة لما حدث له. وفي عام 1996 وجدت زوجتي "ماريون" كتاب يذكر تلك الحادثة بالذات. فاتّصلت بالكاتب الذي ذكر أنّّه بالحقيقة لم يتقابل مع زميلي أمر الدورية بالفترة الأخيرة، ولكنّه سمع أنّه يعيش في لندن. وأدركت أنّي وصلت إلى طريق مسدود آخر. وقرّرت يائساً أن أطلب مُساعدة الصُحف المحليّة. فنشروا قصّتي وصورتي في طبعة أسبوعيّة لصحيفتهم، وفي غضون 48 ساعة تلقيتُ مكالمة من الشخص الذي كنتُ أبحثُ عنه لسنوات.

كان الأمر صعباً عليّ. فبعد عدّة مُحادثات تليفونيّة، رتبنا أن نلتقي معاً في منزلي. وفي الوقت المحدّد أتى مُحملاً بالهدايا... للرجل الذي أطلق الرصاص عليه! فبسببي كان قد أصيب بشلل نصفي، وكان يجد صُعوبة في المشي وفي تحريك ذراعه. فسألته: "هل يمكنك أن تغفر لي؟" فاحتضني. إذ كان قد غفر لي سلفاً.

يعيش "جون بلمر John Plummer" حياة هادئة كقسيس ضمن الكنيسة الميثودية Methodist في مدينة فيرجينيا النائمة والهائئة هذه الأيام، ولكن لم تكن الأمور دائماً هكذا من قبل. فقد عمل "جون" كطيار لطائرة هليكوبتر أثناء حرب فيتنام، وقد ساعد على تنظيم غارة بقنابل النابالم على قرية (ترانج بانج) في عام 1972 - وهو القصف الذي تخلّد لاحقاً عن طريق الصورة التي فازت بجائزة، وهي صورة لإحدى ضحايا ذلك القصف ألا وهي الفتاة الفيتناميّة "فان تاي كيم فك". وظلّت تلك الصورة تُطارَد "جون" لمُدّة أربعة وعشرين سنة، فهي الصُورة التي بالنسبة للكثيرين تُظهر مضمون الحرب: فيها نرى فتاة تبلغ التاسعة من عُمرها عارية ومُحرّقة تصرخ وهي فاتحة ذراعها وتجري نحو الكاميرا، وفي الصورة تظهر سُحب الدُخان السوداء تتصاعد في السماء من خلفها.

ظلّ ضميرُه يُعذّبه لمُدّة أربع وعشرين عاماً. واستمات على شيء واحد وهو أن يجد تلك الفتاة لكي يُخبرها بأسفه - ولكنّه لم يستطع إيجادها. فقد كانت فيتنام كبلد بالنسبة له فصلا قد انتهى من حياته، فلم يستطع أن يُقنع نفسه بالذهاب إلى هناك مرّة أُخرى. حاول أصدقاؤه تهدئته، لأنّه كان قد فعل وقتئذٍ كلُّ ما كان بوسعه ليتأكد من أن تلك القرية كانت خالية تماماً من المدنيين، ولكنّه ومع ذلك لم يحصل على السلام. فأثّر ذلك عليه حيث فشل زواجه وأدمن على الخُمور.

وفي مُصادفة لا يُمكن تصديقها، تقابل "جون" مع "كيم" في يوم المحاربين السنوي عام 1996 عند موقع النصب التذكاري الفخم لحرب فيتنام. فقد جاءت "كيم" إلى واشنطن لكي تضع إكليلا من الزهور للسلام، في حين جاء "جون" مع مجموعة من الطيارين السابقين الذين كانوا لا يزالون يبحثون عن

تحرّر من الماضي. وفي الكلمة التي ألقتها "كيم" أمام الجموع قالت إنّها لا تشعر بالاستياء. وعلى الرُّغم من أنّها كانت ما تزال تُعاني كثيراً من الحروق التي تعرّضت لها، لكنّها أرادت أن يعلم الناس أن هناك آخرين غيرها عانوا أكثر منها، فقالت: "خلفي في هذه الصورة، كان هناك آلاف وآلاف من الناس الذين... ماتوا. وفقدوا أجزاء من أجسادهم. ودُمّرت حياتهم بالكامل، ولم يلتقط أحد صوراً لهم".

استمرّت "كيم" في كلمتها قائلة بأنها قد غفرت للرجل الذي ألقى بالقنبلة على تلك القرية، وعلى الرُّغم من أنّها لا يمكنها تغيير الماضي، إلا أنّها كانت تريد "ترويج السلام". أما "جون"، الذي لم يصدق عينيه، فقد حاول الاندفاع للأمام واختراق الجموع وتمكن من لفت انتباهها قبل أن تغادر المكان كالبرق مع حماية بوليسية. فعرفّها بنفسه على أنّه الطيّار المسئول عن إلقاء تلك القنبلة على قريتها منذ أربعة وعشرين عاماً، واستطاع أن يتحدثنا معاً لدقيقتين قصيرتين. فيخبرنا "جون":

رأت "كيم" حزني وألمي وكربي... ففتحت ذراعها لي وعانقتني. ولم أمكّن من قول أيّ شيء سوى "إنّي آسف، إنّي آسف" - عدة مرات. وفي نفس الوقت كانت تقول لي: "حسناً، كلُّ شيء على ما يرام، أغفر لك."

تقابل "جون" و "كيم" مرّة أخرى في نفس اليوم، وأكدت كيم له من جديد أنّها قد غفرت له. ولقد أصبحا مُنذُ تلك اللحظة صديقين حميمين بعضهما يتصل ببعض تلفونياً باستمرار.

هل وجد "جون" السلام الذي كان ينشده؟ يقول "جون" نعم وجدته! وعلى الرُّغم من أنّ مشاعره لا زالت مُتأثّرة بذكرات الحرب، إلاّ أنّه يشعر أنّه الآن يستطيع أن يغفر لنفسه وأن يضع هذا الحدث خلفه.

ويقول "جون" بأن لقاءه مع "كيم" وجهاً لوجه بعث فيه الحياة حينما تمكن أن يخبرها بأنه تعذّب حقاً بسبب جراحاتها. مع ذلك، فإنه يؤكد على أنّ العُفْران الذي حصل عليه ما هو إلا عطية مجانية تلقاها - وليس شيء يُمكن اكتسابه بقدرته، كما أنّه لا يستحقّه. وإجمالاً، فإنّه سرُّ عجيب: فهو لا يستطيع أن يفهم لحد الآن كيف أنّ مُحادثة استمرّت لمُدّة دقيقتين، استطاعت أن تُزيل الكابوس الذي استمرّ لمُدّة أربعة وعشرون عاماً معه.

ريتشارد Richard وهو **مُحارب آخر** من حرب فيتنام، رجل وديع وهادئ يحب الأطفال والخيال، ولكنّه، طوال السنوات الخمس التي عرفته فيها، لاحظت أنّه كان يتعذّب بسبب الأحداث التي كان قد مرّ بها منذ أكثر من عقدين. اسمعه وهو يقول:

هناك أحداث موت كثيرة تملأ ذهني. فالموت الذي تسببت فيه للآخرين - والموت الذي أراده الآخرين لي - لا يُفارقني أبداً! وأمزح كثيراً مع من أعمل معهم. فيجب عليّ أن أفعل ذلك، حتى أخفي الألم، وأبعد ذهني عن التفكير في هذا الأمر. فأنا بحاجة لأضحك. فالضحك يبعد الكآبة. غير أنني لست قادراً على محبة الآخرين. فيوجد جزء مفقود من روحي، ويبدو أنني لن أستعيده أبداً. ولا أعرف إن كان سيكون بمقدوري في يوم من الأيام أن أغفر لنفسي كلّ الأخطاء التي ارتكبتها. أعيش يوم بيوم، ولكنني أشعر بالإعياء طوال الوقت - دائماً منك. فهل سينتهي هذا يوماً ما؟ لا أعرف كيف؟ فقد كان معي طوال الخمسة وعشرين عاماً الماضية."

غالباً ما يتمّ حتّ أشخاص أمثال "ريتشارد" بمراجعة جهات إعانة رسمية لطلب المشورة. فينصحوهم مثلاً لإيجاد غيرهم ممن مرّوا بتجارب مماثلة، أو الانضمام إلى مجاميع تدعمهم وتساعدهم معنوياً، أو الدوام على حضور جلسات معالجة جماعية. وقد فعل "ريتشارد" كلّ ذلك؛ وزار أكثر من مُشير وذهب إلى اجتماعات مجموعة المحاربين في فيتنام لمُدّة عام كامل، ولكنّه لم يحصل على السلام بعد.

قد تُساعد هذه الوسائل في العلاج، ولكنّها في بعض الأحيان تقف عاجزة عن تقديم حل يدوم لفترة طويلة. فيمكن للطبيب النفسي الناجح أن يُشجّعك على الإفصاح عن الأجمال التي تُعاني منها من الماضي، ولكن إن لم يتبع هذا ندم واعتراف بالحاجة الشخصية إلى العُفْران، فلن يكون الاعتراف مُجدياً.

يتذكر "روبرت كولس" الطبيب النفسي من جامعة هارفارد الشهيرة مُحادثة هامّة مع "آن فرويد". فعلى الرُغم من ذبوع صيت والدها، إلّا أنّها هي أيضاً كانت طبيبة نفسية مشهورة. وعندما تحدّثنا عن التاريخ النفسي الطويل والمليء بالمتاعب لإحدى السيدات المُسنّات، فإذا بها تخرج بنتيجة، قائلة:

سأقول لك شيئاً؛ في كل مرة، نودّع هذه السيدة، نحتاج أن نسأل أنفسنا، ليس عن: ماذا نعتقد عن حالتها؟ فهذا ما نفكر فيه دائماً! - بل: ماذا بحق السماء نريد تحقيقه لها؟ آه، أنا لا أقصد مجال العلاج النفسي! فلقد أخذتُ كفايتها منه. إنّ الطبيب النفسي يحتاج إلى سنين يقضيها في التحليل النفسي أكثر بكثير مما يهبه الرب الصالح والحُنان لها... لا، لقد فاض كأسها بنا، حتّى وإن لم تُدرك هي ذلك... فما تحتاجه بالحقيقة هو... العُفْران. فهي بحاجة لأن يكون لها سلامٌ مع نفسها، وليس التركيز على ذهنها وعقلها. فلا بد وأن يكون هناك إله في مكان ما قادر أن يُساعدنا ويسمّعنا ويشفيها... ولا يوجد شكٌ في أنّنا غير مؤهلين لمُساعدتها في هذا المجال!

يا له من أمر هامٍ للغاية: فلا يُمكننا أن نجد السلام والشفاء إن لم نتعلّم مُواجهة أخطائنا. والاعتراف بالذنب وحده لا يكفي لكي نحصل على العُفْران. ففي بعض الأحيان قد لا يرغب الشخص الذي أخطأنا في حقّه أن يغفر لنا. وفي أحيان أخرى قد لا نرغب نحن أو قد لا نستطيع أن نغفر لأنفسنا. وعندئذ يجب أن نلجأ لله لطلب المُساعدة مثلما اقترحتّه "آن فرويد". فنحن نقبل العُفْران كعطيةٍ محبّة، عندما توافينا تماماً عند تلك المرحلة التي نشعر فيها بعدم استحقاقنا لاستلامها. فبفضل هذه النعمة وحدها سنتحرّر لتجعلنا قادرين على مسامحة الآخرين من صميم قلوبنا وكذلك على إلزام أنفسنا بالتغيّر والتوبة.

تحمّل المسؤولية

عندما ندلي ونعترف بخطايا معينة، فسيهوت الإنسان القديم الذي في داخلنا ميتة موجعة ومخزية ومشينة أمام أنظار أخ مؤمن. ولما كان هذا الإذلال عسيراً علينا، فترانا دائماً نحاول تجنبه. غير أنه بفضل هذه الآلام الجسدية والمعنوية الموجعة لهذا الذلّ والهوان أمام الأخ المؤمن فإننا سنشهد... نجاتنا وخلصنا.

ديتريش بون هوفر Dietrich Bonhoeffer

مِن المُستحيل أن نغفر للآخرين إن لم نُدرك حاجتنا إلى العُفْران. ففي الواقع، إنَّ مُجرّد إدراك الموضوع ليس كافياً، إذ يجب أن نعترف بأخطائنا لشخص آخر. يصرف بعض الناس نظرهم عن موضوع "الاعتراف بالخطايا" بحجة أنه طقس كاثوليكي غريب وعقيم. ويقرّ آخرون بأنّ الاعتراف - سواء أكان لقسّ أو لصديق أو لمُشير - قد يكون مفيداً، إلا أنّ المرء يمكنه أن ينال سلام القلب بالسهولة نفسها بدون الاعتراف. ومع ذلك، فإنّ سلام هؤلاء الناس ليس أكثر ثمّاً وصفه "تولستوي" حين قال: "إنّه موتٌ للروح". إن الذنب يُقترف في الخفاء، ويفقد قُوّته مُجرّد السماح له بالخروج إلى النور. وغالباً ما نود إظهار شخصيتنا بأنها قوية وفاضلة الأمر الذي يؤدي إلى منعنا من الإقرار للآخرين ما قد إقترفناه من سيئات: ونُحاول عوضاً عن ذلك أن نُمحو تلك الأخطاء من الذاكرة، وعندما نفشل في هذا الأمر، تجدنا نحاول أن نخبئها لا غير. وبفعلتنا هذه فإننا لا نقوم إلا بتكديس ذنب على ذنب. فما لم نعترف بما قد اقترفناه من سيئات وتحمّل مسؤوليتنا عنها، فسيطفح في داخلنا الشعور بالذنب

فلا علاقة لشعورنا بالأسف عمّا ارتكبناه مع موضوع تعذيب النفس. فإذا صرنا ننظر إلى أنفسنا وضعفنا البشري فقط، فسيكون حليفنا بالتأكيد هو اليأس والدمار، ولكن ومُجَرَّد أن نصرخ بدموع الندم، فيلزمنا عندئذ أن نرجع للوراء وترك الأمر (لصاحب الأمر) لنسمح للمياه العكرة التي ملاءت قلوبنا تتصفّى. وإلا فلن يسعنا أبداً رؤية الرواسب الدفينة في أي مكان في داخلنا.

يكتب "ستيف Steve" وهو صديق قديم لي نشأ في ضواحي مدينة واشنطن العاصمة في الستينات
قائلاً:

لقد سعيت إلى العديد من الديانات والدراسات النفسية سعياً وراء السلام والكمال، ولكنني لم أجد سوى إجابات جريئة... وإلى أن رأيتُ أخيراً مدى جسامه الغلط في حياتي الشخصية، أدركتُ أنذاك الضرورة الملحة وحاجتي إلى التغيير والتوبة.

وقد حدثت تلك التجربة التي غيرت موقفي بغير توقُّع في أحد أيام عام 1983 عندما أدركت لأول مرة مدى حجم السيول من السيئات التي قد ارتكبتها. فقد كانت تلك الحقيقة غائبة عني بسبب كبريائي ورغبتني في أن أبدو صالحاً أمام الآخرين، ولكن الآن أخذتُ الصور والذكريات تنساب مني مثل نهر من المرارة والعلقم.

فكل ما كنت أبغيه هو أن أكون متحرراً منها، وألا سيكون في داخلي شيء مُظلم أو مختبئ في أعماقي، وأردتُ أن أُصحح أخطائي على قدر استطاعتي، فلم يُعُدْ لدي حججاً لتبرير ذاتي بإلقاء اللائمة على مرحلة الشباب أو الظروف أو أصدقاء السوء. فقد كُنتُ مسؤولاً عمّا فعلت.

وبدأتُ أمسك ورقة بعد ورقة وأسكب فيها كل ما لدي من شائعات وبكامل التفصيل. وأحسست وكأن ملاك التوبة يضرب قلبي بسيفه، فهكذا كانت الآلام. وكتبتُ عشرات الخطابات لأفراد ومؤسسات تحايلت عليها، أو سرقت منها أو كذبت عليها... وأخيراً شعرت بأني قد صرت حُرّاً حقاً.

كتب الروائي الروسي الشهير "دوستوفسكي" في قصته التي تحمل عنوان "الأخوة كارامازوف" بنفس الفكر عن رجل اعترف بجرمة قتل أخفاها لعقود طويلة، فقال بعد اعترافه: "أشعر بالفرح والسلام لأول مرة منذ سنوات طويلة، فالسما في داخل قلبي... والآن يُمكنني أن أجرو على محبة أولادي وتقيلهم."

ينتشر الغفران الحقيقي كالعُدوى من شخص لآخر، وهو له القدرة على اكتساح مجتمع أو مدينة أو منطقة بأكملها.

فقد شهد سُكَّان قرية "موتلينجن Möttingen" وهي إحدى القرى التابعة لمنطقة "بلاك فورست Black Forest" بألمانيا، شهد حركة كهذه في عام 1844، والتي قلبت حياتهم رأساً على عقب. إنَّ قرية موتلينجن اليوم هي قرية عادية ولم تختلف عما كانت عليه سابقاً قبل حدوث الصحوه فيها. وبالأحرى، فإنَّ راعي كنيستهم آنذاك "كريستوف بلومهارت Christoph Blumhardt" الذي اشتهر بالمدة الأخيرة، كثيراً ما كان يتهدد بسبب الشعور باللامبالاة والفتور الذي كان يُغطى أبرشيته مثل بطانية من الضباب. غير أنَّ لوحة كانت مُعلَّقة على جدار خشبي لأحد المنازل القديمة، تشهد عن صحَّة هذه الأحداث العجيبة التي اكتسحت القرية يومها. فقد وجدوا مكتوباً عليها العبارات التالية:

"أيها الإنسان: فكر بالآخرة

لا تهزأ بزمن الرحمة

لأن يوم الحساب قريب".

وبدأت "الصحوه"، والتي غالباً ما يشير إليها الناس اليوم، في بداية عام 1843، عندما أتى شابٌ معروف عنه أنه مُدمن خمر وعصبي المزاج إلى بيت القس. وبعد أن ألتمس راجياً مُقابلة القس، سُمح له بالدخول. وأخبر ذلك الشاب القس "بلومهارت" أنه لم يتمكّن من النوم طوال الأسبوع الماضي، وأنَّه يخشى أن يموت إن لم يُبَحِّ بما في ضميره. وظلَّ "بلومهارت" متحفظاً ومُحترزاً إلى حدِّ ما، بيد أنه بدأ يتقبل مصداقيته حينما رأى كيف وابل من الذنوب الكبيرة والصغيرة أخذ ينهمر كالسيل من قلبه.

وعندها بدأت موجة عجيبة من الندم والتوبة. فمع حلول 27 يناير 1844 جاء ستّة عشر شخصاً إلى بيت القس ليزيخوا عن قلوبهم حمل الخطية. وبعد مُضيِّ ثلاثة أيَّام ارتفع العدد ليصل إلى خمسة وثلاثين. وبعد عشرة أيام وصل إلى أكثر من مائة وخمسين شخص. فصار الرجال والنساء من كلِّ القرى المحيطة يتدفقون إلى موتلينجن.

ولم يكن لهذا أيَّة علاقة بالمشاعر الجيَّاشة التي تصاحب "النهضات" الروحيَّة، ولا أيَّة مُبالغة في الشرور التي كانت قد ارتكبت في الماضي أو في المجاهرة بالتوبة علناً. إنَّ تلك الصحوه كانت أكثر وقاراً وجديةً بالمقارنة مع هذه الأمور. وأيضاً كان لها انعكاسات في الحياة الواقعية بصورة أعمق. فقد شعر الناس في داخلهم بضرورة قطع علاقتهم بالماضي: فقد وُخِزَتْ قلوبهم، وفجأة تجلَّت لهم قباحة حالهم. وحينما استبشعوا الأمر، رأوا، ومن غير لفٍّ ودوران، بوجود التخلي عن طرقهم القديمة.

وأهم ما في الموضوع هو أنّ حركة تأثر القلوب هذه قد تجاوزت حدّ الكلام والمشاعر وأفرزت تغييرات حياتية ملموسة ومنظورة تعبيراً عن التوبة والمغفرة. فعادت البضائع المسروقة، وتصالح الأعداء، وتمّ الاعتراف بالخianات الزوجية والجرائم (من ضمنها وأد للأطفال)، والتأمت الزيجات المفككة. كما ابتعد حتى مُدمني الخمر في البلدة عن الحانات!

إنّ الذين يشككون في مدى أصالة الصحوة التي وقعت في موتلينجن يلزمهم فقط أن ينظروا إلى نتائجها ليدركوا بأنها لم تكن وهم مُخلَق. وعلى الرُّغم من سُخرية الناس في البلدات الأخرى، إلا أنّ كُلاًّ القرية كانت قد تأثرت بتلك الصحوة. ويُذكر أنّه في عام 1883 أي بعد حوالي 40 سنة من تلك الصحوة، كتب "فريدريش زندل Friedrich Zündel" (وهو كاتب سيرة بلومهارت) مايلي: "إننا لم ننس بعد ما حدث - فحتى أطفال أولئك التائبين لا يزالون يشعُّون الفرح الغامر الذي عمّ تلك البلدة." أما أنا - كاتب هذا الكتاب - فقد سافرتُ خلال الثلاثين عاما الماضية كثيراً إلى ألمانيا لكي أزور حفيدات "بلومهارت". (فقد تأثر والديّ بكتاباتهِ وسمياني بِسَمهِ تيمناً به.) ويُمكنني أن أشهد أن هناك شيئاً من نفس الروح الذي اكتسح البلدة آنذاك ظلّ على حاله حتى اليوم.

هل تُعتبر الصحوة التي حدثت في موتلينجن حدثاً مُنفصلاً؟ وهل يُمكن لحدث كهذا أن يتكرّر؟ كان لدى "بلومهارت" إيماناً يجيب قائلًا: "ممكن"؛ فعلى أيّة حال، إن الأمر كُله بدأ برجل واحد نادم فقط.

في كثير من الحالات، يُمكن تصحيح الخطأ مجرد عن طريق اعتذار بسيط - مثلاً عندما نفقد صبرنا مع شخص ما أو عندما يفتقر تعاملنا إلى الرأفة. وقد وجدت من خلال خبرتي أنّ أفعالاً متعمدة مثل الغش أو السرقة يجب ألا يتمّ الاعتراف بها فقط، وإنما مواجهة عواقبها أيضاً، إذا كانت هناك رغبة في الحصول على تحرّر كامل. فهناك حالات يكون فيها من الضروريّ عمل أشياء أكثر من مجرد الاعتراف الشخصي.

فكما يكتب "ستانلي هاورفاز Stanley Hauerwas": "لا يمكن لأفراد أيّ مُجتمع يعيش حياة أخوية مشتركة أن يتغاضى بعضهم عن خطايا بعض لأنهم تعلموا أنّ الخطية مُثل تهديداً للمُجتمع الذي يرمي إلى السلام." فلا يعود يرى أفراد المجتمع الأخوي المتحد بأن التسرُّ على الامتعاض الذي تسببه ذنوبهم الشخصية على أنه مشكلتهم وحدهم. ويردّ قائلًا: "عندما نُفكّر في أختنا أو أختنا التي أخطأت نحونا، فإن إهانة كهذه لم تُرتكب ضدنا نحن فقط، بل ضدّ الجماعة الأخوية كلّها."²⁰

اختبر "مارك و دبي Mark & Debbie"، وهما صديقين لي يعيشان الآن في بنسلفانيا، اختبرا هذا الأمر للمرة الأولى في الجماعة الأخوية الصغيرة التي كانا ينتميان إليها بكاليفورنيا في أواخر الثمانينات:

على مر السنوات، رأينا النتائج المدمرة المترتبة عن تجاهلنا للأخطاء أو محاولة إخفائها سرّاً. كُنّا نعيش ضمن مُجتمع متشارك صغير في المدينة مع عدد من الناس، أحدهم كان رجلاً أعزب وقع في حُبّ سيدة مُتزوّجة من جماعتنا. وحاول بعضنا مُعالجة تلك العلاقة من خلال التحدّث معهما عن قصّتهما الغرامية. ومع ذلك، لم يكن هناك فعلاً أيّة وسيلة لإمكانية "طرح القضية علناً". ولخشيتنا من أن يبدو في موقف ديان أو قاسي القلب، اخترنا أن نتعامل مع الأمر باعتبار أنّ تلك العلاقة لم تكن علاقة خطيرة للغاية، أو على الأقل ليست خطيرة بالدرجة التي تستوجب إثارتها علناً. ألا يرتكب جميعنا أخطاء؟ فمن نحن لندينهم؟ أقنعنا أنفسنا أنّ المُواجهة ستزيد من شعورهما بالعار وأيضاً من إدانتهم لأنفسهما، وكذلك ستديم دوامة الفشل وستغرقهما أكثر. لهذا فلقد تجنبنا الأمر برمّته كما لو كان وباء. والآن، وبعد حين، نرى بأنّ ما كان يُدعى "عطفاً" هو الذي عمل على ديمومة فشلهما.

ومع ذلك، فقد ترك الرجل مجتمع جماعتنا أخيراً. وبعد سنتين، تركت المرأة أيضاً - وطلّقت زوجها.

أنّ التجربة التي مرّ بها "مارك" و "دبي" ليست فريدة من نوعها حتماً. فقد انفسخت زيجة لأنّ الجميع حاولوا أن يستخفّوا بما كان يحدث فعلاً. إنّ المُواجهة أحياناً تكون ضرورية إذا أردنا الحصول على العُفْران، لأنه ما لم يتواجه أيّ شخص منّا وجهاً لوجه بما قد فعله من خطايا، فإنّه سوف لا يسعى لطلب العُفْران ولا حتّى ينعم بتذوّقه. أما الإحجام عن مواجهة مَنْ يؤدي الآخرين - لأننا نُقنع أنفسنا بأنّ هذا الأمر ليس من شأننا، على سبيل المثال - يكون أحياناً سبباً لنعذرهم عما يفعلونه من شائعات. وكما رأينا سلفاً، فإنّ التغاضي عن الشائعات نقيضٌ لعُفْرانها.

يكتب "ألان باتون Alan Paton" في قصّته "فات الوقت أيها الطائر" عن رجل أفريقيّ مُحترم من أصل أوروبي (أي أبيض البشرة)، في زمن التمييز العنصري في دولة جنوب أفريقيا، كان قد اقترف خطيئة "لا تغتفر" ألا وهي: الرّنا مع امرأة أفريقية الأصل. ولما ظهرت تلك الخطية في النور، انهارت أسرته. وتركه أصدقاؤه، واحتقره ورفضه أقرباؤه، ومات والده نتيجة شعوره بالعار. إلا أنّ أحد جيرانه عبر عن حزنه لما حدث فقال:

يُمكن مُعاقبة المُذنب... ولكن أن نعاقب ولا نصلح، فهذا في حدّ ذاته يعتبر من أشدّ الجرائم... فإن أخذ الإنسان على عاتقه القيام بدور الله في العقاب، فيجب عليه أيضاً أن يأخذ على عاتقه تحقيق وعد الله بإصلاح الشخص المُذنب

إنّ الاعتراف بالخطايا يُهدّ الطريق للعُفران والمُصالحة. وبدونه نطلُّ مُنغلقين تماماً في كبريائنا، ويصبح الغفران ليس ممكناً. عندما عاد والد زوجتي "هانز Hans" إلى مجتمع جماعتنا للحياة الأخوية المشتركة بعد قضائه لأحد عشر عاماً بعيداً عنها، كتب ما يلي:

توقّعتُ أن يستقبلوني بالحجارة، ولكن لم يحدث أي شيء من هذا القبيل. فقد أتيحت لي كلُّ الفرص لكي أعبر بها عن أسئتي وهواجسي علناً أمام الجماعة، وتحدّث الجميع معي بانفتاح وصراحة. والحقيقة هي أنّ قلبي لم يذب من الصراحة فقط؛ ولكن بالأحرى، من المحبّة بينهم والتي تقاسموا بفضلها المسؤولية والالتزام - وهي محبّة مستعدة لتغفر، لأنّها هي نفسها اختبرت العُفران. ولم يكن هناك شيء ليتنازع عليه الناس سوى الشيء الذي فصلنا. باختصار جلس كلُّ منّا على نفس المقعد، بمعنى أننا جميعاً كنّا سواسية ولنا الصراع الروحي نفسه. ولم يتم التعامل مع الأمور بمشاعر الإطراء والمداهنات، بل تمّ الأخذ بنظر الاعتبار حتى أكثر الحقائق المؤلمة بحسب نور المحبة.

تأثّر "هانز" جداً بحبّ مجتمعه له، إلا أنّ الشيء الذي أطاح بعناده وتصلبه كان استعدادهم في طلب العفو منه عن الأمور التي أخطئوا فيها بحقه. وتكتب سارة، وهي عضو آخر في مجتمعنا الأخوي المتشارك، عن الفرح والتحرّر الذين غمراها عندما قرّرت أن تنظف سجلاتها وتبدأ بداية جديدة، قائلة:

لم أذق طعم النوم والراحة في الليل. فكان هناك شيء يطرق في بالي: كان يلزمني أن أصحح الأمور! فذهبت إلى بعض من أصدقائي الذين لديّ ثقة فيهم، وأخبرتهم بكل شيء. وقد ساعدني هذا كثيراً جداً، على الرُغم من أنّ ما كان عليّ أن اعترف به هو مُقزّراً للنفس. وفي الأيام التي تلت، بدأت أشياء أخرى تتوارد إلى ذهني، وهناك أيضاً لم أتمكّن من الانتظار. وأتذكّر حينما ركضتُ إليهم لكي أدلو بها. فعندما تقوم بتنظيف جميع دفاترك وسجلاتك، تصير حتى أصغر وأدق الأشياء مهمة وتحسّ بضرورة الإدلاء بها. فكان يجب عليّ أن أتخلص من كل شيء صغير يتبادر إلى ذهني. فلم استطع الانتظار. ولم أكن أعلم قط أنّي سأجد مثل هذا الفرح في الاعتراف والتوبة، فقد أصبح قلبي خفيف مثل الريشة أكثر وأكثر.

اكتشفت "سارة"، مثلها مثل الآخرين الذين صمموا على مواجهة ذنوبهم وطلب العُفْران، اكتشفت شعورا رائعا من التحرر والراحة. وقد توقعت أن يرفضها وينتقدها الأعضاء الآخريين في المجتمع الأخوي بشدة بسبب ما ارتكبه في الماضي، وأن يتجنبوها بالكامل بمجرد أن تحكي لهم ما حدث، ولكن لدهشتها وجدتهم يُرحّبون بأمانتها ويقبلونها مع بكل ضعفها. وعندما اعترفت بمسؤوليتها عن أخطاء الماضي وأعلنت تصميمها على القيام ببداية جديدة، وجدت "سارة" - مثلما يقدر على إيجاده كل واحد منّا - بأن الاعتراف يمهّد السبيل للمصالحة، فلقد مهّد هذا الاعتراف الطريق أمامها للحصول على المصالحة.

لُومَ اللّٰهِ

ليس صحيحاً لا أن تُحاول إزالة كل الآلام، ولا أن تتحملها متعمداً برباطة جأش. فالمُعانة يُمكن تسخيرها وتحويلها للخير. وما يجعل الحياة فَرِحَة أو تعيسة هو ليس الظروف الخارجية، بل موقفنا الداخلي نحوها.

أبرهارد آرنولد Eberhard Arnold

عندما نتحدّث عن العُفْران، فإننا عادة ما نقصد الأذى الذي تسبب بعضنا فيه لبعض، ولكن في بعض المرات يبدو أنه لا يُوجد من نلومه. ولما كانت المشاعر والانفعالات التي هيج لدينا في هذه المرات تشابه كثيراً تلك التي تحدث في الحالات التي فيها طرف مذنب، فيميل كثيرون منّا - بحق أو بغير حق - إلى وضع اللوم على الله لأنه جعلنا نتعذب بدون أي سبب واضح أو مبرر. وعندها نمتلئ بالغضب والألم مُتسائلين: "كيف يُمكن لإله رحيم أن يسمح بهذا؟" فهل ترانا نقدر أن "نغفر" لله؟

لا أنوي البحث في مسألة: "هل من العدل أن نلوم الله في مثل تلك الظروف أم لا؟" فمن السهل أن نلوم الله ونغفر له حتّى لو كُنّا لا نُؤمن به فعلاً بدلاً من أن نواجه احتمال أنه لا يوجد من نلومه. فالغضب مرحلة مشروعة من الحُزن حتّى عندما لا يكون هناك هدف واضح لنوجه نحوه غضبنا. فنحن بحاجة إلى التعبير عن غضبنا والتعامل معه، إن كُنّا نرغب في الحصول على الفرصة المُناسبة للشفاء والتقدّم للأمام.

هل يُمكن أن نتعلّم إذن أن نغفر لله عندما نراه مسئولاً عن الألم الذي حدث لنا، تماماً مثلما تعلّمنا أن نغفر للآخرين عندما نشعر بأنهم جرحونا؟ إنَّ الحل يكمن في تنمية رغبتنا في التعلّم من

تجاربنا لننمو ولكي ينتج منها شيء إيجابي، وإلا سيبدو أن الأمر كله سلبي في حياتنا. فعندما يبدو أنه لا يوجد سبب لآلامنا، يجب أن نجد سبباً. فليس من الضروري أن تكون الزمة فقط كارثة؛ فيمكنها أن تكون فرصة أيضاً.

فقدت "زوهار جيمبرلين Zohar Chamberlain"، وهي صديقة من كيبوتس كيشور في إسرائيل (كيبوتس هو مجمع تعاوني سكني وعملي متشارك في المصاريف الرئيسية)، فقدت ساقها في حادثة حين كانت في السابعة عشر من عمرها. وعلى الرغم من أن "زوهار" لم تجد شخصاً لتلومه على ما حدث، وعليه لم تجد شخصاً لتغفر له، فقد كانت لا تزال غاضبة بشأن حالها وقد تدمرت نفسياً كثيراً لأنها فجأة صار عليها أن تتعلم من جديد على كيفية القيام بالكثير من الأمور التي كانت في السابق لا تستغرقها ومضة عين لأدائها. فتقول:

حدث ذلك في صيف عام 1987 عندما كنت في السابعة عشر من عمري، وكنت قد تطوّعت للعمل لمدة عام كمُرشدة مع مُنظمة للشباب في أورشليم. وبعد أربعة أيام من عملي كان عليّ الاتجاه إلى الشمال، لهذا أخذت حافلة من محطة حافلات أورشليم المركزية. فقد كان هذا أفضل أسلوب للوصول إلى الشمال. ولم أحاول أسلوب الركوب المجاني عن طريق التلويح للسيارات المارة، أو المغامرة بأي خطر آخر. وإنما ذهبت كمسافرة عادية.

لم يستغرق الأمر سوى دقائق معدودة لكي تتجه الحافلة إلى شارع "يارمياهو"، ولم تكن هناك حتى أدنى فرصة أمام السائق ليسرع في سياقته، ولكن الطريق كان مليئاً بالمياه والصابون الآتية من تنظيف أحد المطاعم على جانبي الطريق. ويبدو أن السائق ارتكب خطأ وأغلق الفرامل. فطلت الحافلة تزلق نحو شاحنة واقفة جانباً. فأصيب ثماني عشر شخصاً بجروح، ولقي جندي وفتاة في الخامسة من عمرها مصرعهما.

ولا أتذكر أي شيء عن الحادث، على الرغم من أن المُسعف الذي شرع بإسعافي على الفور قال بأنني بقيت على وعيي. وأتذكر بعض الأحداث البسيطة في المُستشفى مثل إعطائي لرقم بطاقتي الشخصية وأرقام التليفونات لكي يُجربوا والديّ، وأيضاً عندما قصّوا ملابسني؛ وأتذكر أمي كذلك وهي في طريقها من غرفة الإفاقة إلى وحدة العناية المُركزة.

ولم يخبروني بأني خسرت ساقني إلا بعدها بيوم. فجاءت أمي إلى سريري وسألني إن كنت أعلم ما حدث، فأخبرتها أنه يوجد عطب ما في رجليّ، ولكني لا أستطيع رؤيتهما لأني كنت نائمة على ظهري. ولا أتذكر أنني أصبت بصدمة نفسية من جرّاءها، وذلك بسبب تأثير شتى أنواع المسكنات لتخفيف الألم. وبقيت بوحدة العناية المُركزة لمدة اثني عشر يوماً. وشعرت بالاطمئنان في ذلك المكان على

الرُّغم من آلامي الشديدة، لدرجة أنني لم أستطع رفع رأسي من على وسادتي، وكُنْتُ أعاني من ارتفاع في درجة الحرارة مُعظم الوقت. فقد مَتَّ رعائتي بصورة جيدة، ولم يخطر ببالي وقتذاك بأنه سيترتب عليّ التعامل مع شيء من هذا القبيل، وكنت محاطة بكل الدعم والرعاية اللطيفة التي كنت أمناها. لكن قبل حلول العام اليهودي الجديد، انتقلت إلى الجناح الخاص بعلاج التشوُّهات. وقرروا عند ذلك أنه لم يكن في الإمكان المُحافظة على ركبتي اليمنى، وأخبروني أنه يجب عليّ إجراء عملية ثانية لبرّرجلي فوق الرُّكبة مُباشرة. وكان هذا أصعب بكثير من احتمالي، وانفجرت في البكاء عندما أخبرتُ أحد أصدقائي الذي أتى لزيارتي.

كانت عملية الشفاء من الجراحة الثانية صعبة للغاية. فقد عانيت كثيراً ولاسيما من آلام وهمية في الرجل المفقودة -Phantom pain. وما جعل الموقف أسوأ. هو محاولة الأطباء إقناعي بأن مثل هذه الآلام غير موجودة بالأساس. وكانت فترة الأربعة أسابيع هذه، فترة عجز بالنسبة لي. فقد كُنْتُ مُدركة لضعفي وعدم مقدرتي على رعاية نفسي بما جعلني غاضبة للغاية (كانت عائلتي وأصدقائي بجواري طوال الوقت). فقد كُنْتُ شخصيّة مُستقلة تماماً، وفجأة رجعت مثل طفلة صغيرة مرّة أخرى. ولم يكن من السهل أن استجمع قواي لفعل الأشياء التي اعتدت عليها من قبل والتي لم أقلق بشأنها قط في السابق لأنها كانت أمور مسلّم بها، أما الآن فصارت تبدو شبه مستحيلة.

لا أعلم كيف كانت لشخصيتي أن تكون لو لم يصبني هذا الحادث ومن ثم أخوض تبعاته، ولكنّي أعتقد بأنه جعلني أقوى. فعندما أدركت حاجتي للآخرين من حولي من جهة وأيضاً ضرورة التعامل مع موقفي من جهة أخرى تجلّت لي بكامل الوضوح أهمية دور حياة الجماعة المتضافرة من حولي. فبدلاً من أن أشعر بأني عديمة الفائدة لأني لا أستطيع القيام بأمور مُعيّنة، وجدت أنني عندما اعترف بحاجتي إلى المُساعدة، فإنّ هذا يجعلني شخصاً كاملاً أكثر وأكثر. كنت من قبل أميل إلى الاستعلاء على هؤلاء الذين لا يستطيعون الوفاء بمتطلبات الحياة بمفردهم، ولكنّي الآن تعلّمت درساً جيداً في قبول الآخرين كما هم من خلال تعلّم طلب المُساعدة.

في حياتي الشخصية - يقول المؤلف - كان يتحتم عليّ باستمرار مواجهة حالات من الإحباط وكنت أقوم أحياناً باللقاء اللائمة على الله، ففي إحدى المرّات كُنْتُ في رحلة صيد سمك في ولاية نيويورك - وكانت رحلة فاشلة فيما يتعلّق بالصيد، ولكنها كانت فرصة جيدة للهروب من ضغوط العمل لبضعة أيّام.

وفي طريقي إلى المنزل، لاحظت أنني بدأت أفقد صوتي. فتجاهلت الأمر في البداية متوقّعا أنه سيتحسن خلال بضعة أيّام، ولكنه لم يتحسن. فذهبت إلى الأخصائي الذي شخّص الأمر على أنه شلل

في الحبال الصوتية. وأكّد لي أنّي سأسترد صوتي لاحقاً، ولكن مرّت أسابيع وشهور ولم يحدث أيّ تغيير. وقد وصف لي راحة تامّة للصوت، ولم يكن مسموحاً لي حتّى بالهمس. وتساءلت: "هل تراني سأتكلم ثانية؟"

ومّا زاد الأمر سوءاً، أنّ مجتمّع جماعتنا كان في حاجة ماسّة إلى قيادة قويّة في ذلك الوقت. فقد كُنّا في خضم أزمة - إذ إنّها كانت فترة مليئة بتفحص النفوس - وخلال تلك الأسابيع من النقاش الساخن وأحياناً متخاصم لم أقدر سوى الجلوس جانباً صامتاً. كان يلتهب صدري لهفّاً على الاشتراك في تلك الاجتماعات، ولكنني لم أقدر؛ فلأوّل مرّة أدرك حقاً قيمة عطية الكلام. وفي وسط إحباطي وخور عزيمتي لم يسعني حتّى التكلم مع زوجتي وأولادي، بل كان عليّ أن أكتب كلّ شيء لهم. كنتُ غاضباً بصراحة. وباعتباري راع مسيحي لمجتمع كنيستنا، لم أستطع أن أفهم أرجحيه إسكات الله لي في زمن كان يحتاجني بصورة بيّنة. وبعد ثلاثة أشهر، بدأ صوتي يعود، وبعد مُضيّ خمس سنوات أصبح طبيعياً، ولكنّي لم انسَ مطلقاً تلك الأسابيع الأثني عشر. فعندما أعود بذاكرتي إلى الماضي، يُمكنني أن أرى أنّ عجزني عن الكلام ساعدني أكثر على تنمية نظرة مرنة ومُتواضعة عن الحياة. وتعلّمتُ تدريجياً على إنعام النظر في إخفاقاتي الشخصية وأيضاً الاستفادة الإيجابية القصوى من أي موقف معيب. ويقرّع ذلك الوقت دائماً في ضميري عند كل مرة أدنو لألوم الله في لحظات الأزمات والإحباط.

صارعت "أندريا Andrea" روحياً، وهي سيّدة في مجتمّعنا الأخوي الذي يعيش حياة مشتركة، صارعتُ لقبول ظروف مختلفة تماماً: فقد عانت من ثلاث إسقاطات في الحمل قبل حصولها على طفل سليم. وفي بعض الأحيان وجدت أنّ أعبائها ثقيلة جداً لا يمكنها احتمالها. فتقول:

غمرتنا السعادة أنا وزوجي "نيل" عندما اكتشفنا بأنني حامل بعد حوالي ستّة أشهر فقط من زواجنا، ولكن في إحدى الليالي قبل عيد الميلاد Christmas شعرتُ بالألم حادّ ازداد سوءاً بسرعة. وأراد طبيب أخويتنا أن يُرسلني إلى المُستشفى، وجاءت جارتني المُمرضة لتبقى معي إلى أن ذهبنا إلى البلدة. وأكّدتُ الممرضة لي ما كُنْتُ أخشاه - وهو أنّني قد أفقد طفلي. وكان الألم النفسي قاسياً تماماً كالألم الجسديّ الذي شعرت به. لماذا يا الله؟ لماذا أنا؟ لماذا ستأخذ تلك النفس الصغيرة بهذه السرعة؟ ما الذنب الذي ارتكبته؟

ولغرض إنقاذ حياتي، تحمّم إجراء عملية جراحية. وفقدتُ الطفل، وقضيتُ أسابيع لاسترد عافيتي. يا له من عيد ميلاد مختلف هذه المرة!

وتعذبنا كثيراً بسبب هذه الخسارة، وكنا نعاني وحدنا من ألمنا هذا. وعندما قال لنا أحد أقاربنا: "ابتهجا! فسيكون حظُّكما أفضل في المرة التالية"، شعرت وكأنني تلقيت صفعه على وجهي. حظ؟ لقد فقدنا طفلاً لتونا! إنسان حقيقي! طفلنا!

أرسل أحدهم بطاقة لي تقول: "الربُّ يعطي، والربُّ يأخذ، مبارك اسم الرب " غير أنَّ هذا دمَّرني فعلاً. فكيف لي أن أشكر الله على هذه التجربة المؤلمة والفظيعة؟ فلم أقدر. ولم أتمكن من التوقف عن التفكير في أنَّ الله كان يُعاقبني بالحقيقة، بالرُّغم من عدم معرفتي بالسبب.

وعزَّاني راعيُّنا الروحي قائلاً: "الله إله المحبَّة، وليس إله العقاب، وهو موجود ليخفف عن الألمانا. فتمسَّكت بكلماته مثلما يتمسَّك الإنسان الغارق بأيِّ شيء ليصل به إلى الشاطئ. أما الدعم الحميم لزوجي "نيل" فبدا وكأنه علامة مرئية لمحبة الله هذه، واكتشفنا أنَّ الألم قد ربطنا معاً بطريقة جديدة. والعبارة التالية: "سيدوم البكاء طوال الليل، لكن الفرح قادم في الصباح"، عزَّتني كثيراً، حتى حينما لم أحسَّ بقدوم ذلك الفرح، وحينما كان يبدو بأن الفجر لن يبرِّغ.

وتدرجياً مع الوقت وبالمعونة الحميمة لهؤلاء الذين يحيطون بي من أخوة وأخوات من مجتمعنا الأخوي، استطعت أن أشعر أنَّ تلك التجربة المؤلمة قد أعطتني لمحة عن محبة الله، الذي يهتمُّ بمُعانة الناس، والذي كان - وأنا على يقين تام - موجوداً بقربي في الآمي. وأصبح الله واقعاً حقيقياً، أكثر وأكثر بالنسبة لي، وبدأت أثق في محبته.

ولكن بعد عدَّة شهور لاحقة عندما كُنْتُ حاملاً في طفل آخر، وأتطلَّع بشوق لأن تسير الأمور على ما يُرام هذه المرَّة، حدث نفس الشيء مرَّة أخرى. ألم حادُّ، ورحلة في سيارة الإسعاف إلى المُستشفى، وعملية لإنقاذ حياتي. وهنا مرَّة ثانية، فقدنا أنساناً صغيراً وعزيزاً فور تكوينه. ومزَّق الألم قلبي. وكتبت في مذكراتي: "لا يسعني أن أفهم السبب؛ وربما لن أفهم أبداً. أريد الاطمئنان الذي يُنعم به الإيمان - رحمتك!"

وقف "نيل" معي جنباً إلى جنب وبكل وفاء، إذ كان قد فقد أخته بسبب السرطان منذ عدَّة سنوات، وكان ما كتبه عند تلك المرحلة مصدر تشجيع كبير لي: "إننا مُنفصلون عن الله فقط على صعيد المسافة الجسدية، وربما قد لا تكون تلك المسافة كبيرة." وتمسَّكتُ بهذه الكلمات بكلِّ قُوَّتي. وتضاءلتُ تدرجياً، وعلى مرِّ الأسابيع والأشهر التي تلت، أوجاعنا وأحزاننا، بالرغم من أنها لم تفارقنا مطلقاً بصورة كاملة. وبعد سنة تقريباً فقدنا مرَّة أخرى طفلاً لم يلدُ بعد. وهنا أيضاً، أكتنفت قلبي ألماً بالغا، ولكنني لم أقم هذه المرَّة بأية محاولات يائسة لمعرفة السبب.

واليوم "أنديرا" أمُّ لطفلة جميلة عُمرها ثماني سنوات. وبالرغم من أنها تتدمَّر نفسياً وينتابها فيض من المشاعر حينما تذكر حالات الحمل الثلاث، إلا أنَّ قلبها خالٍ من أي استياء. وتُحاول أن ترى الجانب الإيجابي من مُعاناتها، وتشعر بأنَّها، وبفضل تلك المعاناة، صارت تحب زوجها بصورة أكثر وجدانية

فضلاً عن أنها جازت في الجحيم وعادت منه سوية مع زوجها، فتراها صارت أيضاً تتمنّ ابنتها بصورة أكبر مما لو لم تمرّ بتلك التجربة.

تزوج "جوناثان رودس Jonathan Rhoads" من "جريتشن Gretchen" في عام 1995، ليؤسسا أسرة شابة في مجتمعنا الأخوي الذي يعيش حياة مشتركة. ومثلهما مثل أية عائلة جديدة، فقد انتظرا بشغف ميلاد أول طفل لهما. وولد "آلان Alan" بعد فترة حمل كانت تبدو طبيعيّة، ولم يلاحظ الأبوين وجود أشياء غير طبيعيّة على "آلان" إلا بعد مغادرتهم للمستشفى. فما كان الطفل يأكل جيداً، بالإضافة إلى أنّ تحكّمه في عضلاته كان ضعيفاً، وكان يبقى في مكانه بلا حراك، وعندما كان يتنفس، كانوا يسمعون مرات صوت قرقرة غريبة. وجرى قبوله على الفور في إحدى المستشفيات الجامعية القريبة منّا، ولكن مشاكله الصحية لم تتضح للأهل إلا بعد بلوغه الثلاثة أشهر؛ فقد لا يتمكن من المشي والتكلم أبداً، وكان مكفوفاً؛ وكانت هناك أموراً واضحة وغير طبيعيّة في الورك، والدماغ والأذنين والمعدة.

أما والديّ "آلان" فتحطموا نفسياً، فقد ظلّ لفترة طويلة يشكّان في وجود علّة معينة في طفلهما، ولكنهما لم يتوقّعا مطلقاً أن يكون الأمر بهذا السوء. وقد بدأ على الفور في اتهام نفسيهما، ولم يمرّ وقت طويل حتى بدأ في اتهام الله قائلين: "لماذا نحن؟"

وأخبرني "جوناثان" في أحد المرّات أنّه كان غاضباً، ولكن عند مساءلته لم يستطع أن يُحدّد ذلك الشخص الذي يُوجّه له غضبه. هل هو نفسه؟ أم زوجته؟ أم الأطباء؟ أم الله؟ نعم، ربما الله. إلا أنه لم يعرف السبب. فقد قال:

من الأشياء التي تتعلّمها بسرعة هي ألا تُقارن طفلك بأطفال الآخرين. فطفل جارنا في حجم "آلان" ولكنّه في ثلث عمّره. وهو لا يجد أيّة مُشكلة في شُرب الحليب من زجاجته خلال خمس عشر دقيقة. أمّا نحن فعندما يشرب "آلان" سنتيمتراً واحداً من الرّجاجة، فإنّنا نشعر بانتصار كبير. لماذا؟ لا يوجد ما نقوله. فإنّما أنّ الله يكرهنا، أو أنّ هذا هو ما أَراده الله فعلاً لطفلنا "آلان." وقد لا نعرف أبداً السبب، ولكن إن امتلأت أحشاؤنا بغضاً واستياءً، فسوف نقل كل الأفراح التي قد ننالها.

وعندما جاء لي باحتياجهما، أكّدتُ لكل من "جوناثان" و "جريتشن" على أنّهما ليسا مسؤولين - بأيّ صورة من الصور - عن مُعاناة ابنهما. وأخبرتهما أنّ كلّ طفل هو عطية من الله، وأنّ "آلان" ربّما يكون عطية خاصّة للغاية، لأنّنا عن طريقه تتعلّم دروساً قيّمة عن الصبر والحنان. فهو يُدكّرنا بالأُمور الهامّة في الحياة، وينشلنا من سباق الجرذان (بمعنى التنافس العنيف الأحمق في الحياة)، ويُساعدنا على

ترتيب أولوياتنا بطريقة سليمة، مثله مثل كل الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة. فالأطفال أمثال "آلان" لهم القابلية على استخراج ما هو الأفضل في داخلنا، ويعيدون اتصالنا مع إنساننا الداخلي الحقيقي.

وما زال والدي "آلان" يجاهدان لأن يغفروا. فهو ليس أمراً سهلاً. فهناك أوقات يرغبان فيها في الهروب، عندما لا يتمكنا من مواجهة زائر آخر يُقدّم لهما كلمات عطف بلا معنى.

وإذ يقترب "آلان" من عيد ميلاده الأول، فإنّ والديه يُواجهان مستقبلاً مجهولاً. وكانت آخر التطورات أنه كان عليه أن يُركّب خراطيم للتنفس الاصطناعي وأنابيب من أجل إطعامه، وفوق كل ذلك، كان عليه استئصال الزائدة. فكم من العذابات يلزمه أن يتحمّل بعد؟

وفي عالمنا الذي يدعو إلى "التشخيص المبكر" (و "إنهاء الحمل" وهو مصطلح منمّق بديل عن كلمة إجهاض) كإجراء لتفادي حالات الأطفال المشوهين، يشهد والديّ "آلان" عن القيمة الجوهرية لكل طفل في العالم. ويقولون بأن "آلان" ليس مسألة شذوذ وراثي، وإمّا هو إنسان لديه الكثير ليقوله لنا، وإنيهما ليسا على استعداد لأن يسمحا له أن يموت. وتكتب الأم "جريتشن" قائلة:

تمتد يده الصغيرة لتصعد عبر الأسلاك المتشابكة بحثاً عن خدي. وعندما انخني لأرفعه من سريره، تتحرك جُفونه قليلاً ويُعطيني ابتسامة عريضة هادئة... وفي خلال الأحد عشر شهراً الأولى بعد ولادته، كان "آلان" قد دخل المستشفى خمسة مرّات؛ أمّا عدد زيارات العيادات فلم نعد نحصّيها بعد. وفي كلّ مرّة كُنّا نعود فيها إلى المنزل، يكون في داخلنا المزيد من الأسئلة والقليل من الأجوبة؛ ومزيداً من الدموع، وقيناً أقل. ولكن عندما كان الطفل يشدّ نفسه باتجاهي وينظر حواليه بحُب الاستطلاع، فقد كان يبتسم. ورضاه عليّ بلسماً لقلبي.

ما مدى الألم الذي يُمكن أن يحتمله؟ وما هي العقبات الجديدة التي تنتظرنا؟ لسنا نعلم بالتحديد. فقد أزال خرطوم التنفس الاصطناعي بعض المغامرات الصغيرة التي كنا نتطلّع لها مثل الأكل بقنينة الحليب أو حتّى بعض الطعام القويّ. فلم نعد هناك قرقرات ضحك منه، ولا حتّى صرخات بكاء الإحباط.

ويُخبّرنا الأطباء أنه لو عاش، فقد لا يحتاج إلى تلك الخراطيم. هذا "لو عاش!". مزقت هذه الكلمات فؤادينا، ولكنّ ابتسامته لا تزال تُعطينا أملاً. فهو يُعلّمنا القبول - ومن ثم الغفران - كلّ يوم.

إثارة موجات

إنَّ المحبة العملية أمر قاسٍ ومُفْزَعٍ بالمقارنة مع المحبة الحاملة. فمحبة الأحلام طمّاعة، حيث تطمع في تنفيذ فوري، وأداء عاجلٍ وأمام أنظار الجميع. والناس مستعدين لبذل نفوسهم إن لم يطلُّ عذاب المحنة...مع مشاهدة وتصفيق الجميع. أما المحبة العاملة والنشِطة فهي عبارة عن جهود مبذولة وصبر وثبات.

فيودور دوستويفسكي Fyodor Dostoevsky

لسنوات عديدة، وكلما أسمع أسم البلد رواندا يكون رد فعلي فوري. فتخطر على بالي المذامح الجماعية، ومعها صور مروعة من عام 1994 عندما مُحِيتُ قرى بأكملها عن الوجود في مجزرتُعدُّ من أسوأ المجازر في التاريخ المعاصر. أما اليوم فيخطر على بالي أمر مختلف تماماً عند سماعي بهذا البلد. إنها المغفرة وقدرتها العجيبة على شفاء حتى أكثر فصول التاريخ الإنساني ظلمة. والتغيُّر في رد فعلي جاء في عام 2008 بعد مقابلة "جان بولس سامبوتو Jean-Paul Samputu". فقد كان "جان بولس" موسيقياً على مستوى عالمي وذو جدول أعمال مكثف، وكان يُشَبَّه بالمغني الشهير "بولس سايمون Paul Simon"، وقد غنّى في كل مكان، بدءاً من أرياف أفريقيا وانتهاءً بمركز "لنكولن Lincoln Centre" للفنون في مدينة نيويورك. وقد فاز بالعديد من الجوائز الفخرية، منها جائزة "كورا Kora Award" الذائعة الصيت، لكن الذي لفت انتباهي هو ليس موسيقاه، وإنما رحلته من الغضب والحقد إلى المغفرة والفرح... فهذا هو يحكي لنا:

تأملوا هذا، لقد جرى قتل مليون شخصاً في غضون تسعين يوماً! فقتل الأصدقاء أصدقاءهم، والإخوة إخوتهم، والأخوات أخواتهن، والأولاد أهاليهم، والأزواج زوجاتهم... وفي خضم ذلك الوقت، كنت أتجول في دولة بوروندي وأوغندا - ولأني كنت شهيراً في رواندا، نصحني أبي بالهرب من البلد، ولكنني رجعتُ إلى بلدي في شهر تموز من عام 1994 عند نهاية المذابح. وكنت أعلم سلفاً بأن والداي قد لقياً مصرعهما - فكانا قد قُتلا في شهر أيار في قريتنا "بوتير Butare" التي تقع جنوبي العاصمة. كما قُتل ثلاثة من أخواني، وأختي التي كانت بعمر 34 سنة. فقد كان الأمر فظيلاً للغاية.

كانت عائلتي من قبيلة "توتسي Tutsi"، وكان جيراننا قد شرعوا في قتل أبناء قبيلتنا. وكنت أعتقد بأن أختي بأمان لأنها كانت متزوجة من رجل من قبيلة "هوتو Hutu"، ولكن بالحقيقة لم تجر الأمور كما اعتقدتُ. فقد قتلوها شيئاً فشيئاً، ولمدة ثلاثة أيام. هناك الكثير من الأمور التي لا أقوى على الحديث عنها...

وعندما رجعتُ إلى رواندا، سافرتُ إلى قرية "بوتير"، وذهبتُ إلى منزل والدي. كان فارغاً. بحثتُ عن الجيران. لم يكن هناك أحد. كانت الجثث في كل مكان. وأيِّ رائحة! أخيراً عثرتُ على بعض الناجين، وعرفتُ مَنْ قُتل والداي. كان أفضل أصدقاء الطفولة، "فينسنت Vincent". فقد ترعرعنا سوياً، ولعبنا الكرة سوياً. فأنشلتُ لساني؛ فقد دمرتني الأحداث كلياً.

في الواقع، لقد فقد كل واحد من قبيلة توتسي فرداً من عائلته في عام 1994، ولكن بمجرد التفكير بأن والداي قد قُتلا على يد أعزِّ أصدقائي!... فقدتُ صوابي. وبدأتُ أتعاطى الكحول والمخدرات. فصرتُ أشرب قنينة كاملة من الجن الأفريقي "واراجي Waragi" كل يوم. وكنت أتعجب من سبب عدم موتي من جرائها. أما الآن فأنا أعرف السبب.

وفي السنين التسع التي تلت، كنت أعيش مذهباً. فالغضب والألم والاستياء أدوا إلى دمار شامل لي. فكانت هناك حرب مشتعلة في داخلي، وتمزقتي. ولم أعد بعد قادراً على الغناء، لأنني كنت مثلاً باستمرار. فلم أقدر على إجراء العقود الموسيقية؛ ولم أكن مستعداً للمثول على المسرح الغنائي. ذهبتُ إلى أوغندا، وحاول الأصدقاء مساعدتي. فجاءوا بي إلى طيب ساحر، الواحد بعد الآخر، ولكن لم يفدني شيء. وكنت غاضباً على نفسي وعلى الله. "أين كنت يا الله؟" وصرت أسأله وأسأله مرات ومرات. "كيف تسمح لمثل هذه الأمور أن تحدث؟"

كانت زوجتي "كلوديا" حاملاً آنذاك. والطفلة التي جاءتنا كانت معوّقة جداً. الأمر الذي جعلني أكثر عصبية. وأخذت أوم الله. وبحصولنا على تلك الطفلة المعوّقة تدمرنا كلانا، أنا وزوجتي، وأخذ بعضنا يتهم بعضاً...

انتقلت عائلة "سامبوتو" إلى كندا في عام 1998. واستقرت العائلة في مونتريال، حيث كانت تقطنها جالية كبيرة من الروانديين المهاجرين، ثم جاءهم طفلاً آخرًا. وفي عام 2000 تطلّق الزوجان. وعاد "جان بولس" إلى أفريقيا. فيردف قائلاً:

ذهبتُ إلى أوغندا - كنت نجماً غنائياً هناك - وأقمتُ عرضاً غنائياً كبيراً هناك. وكسبت مالاَ كثيراً مرة ثانية. وبسبب إدماني على الشرب والمخدرات، كان الأمر ينتهي بي دائماً في السجن. فصرتُ أدخل وأخرج من السجن، مرة بعد أخرى. والآن أعرف جميع السجنون هناك؛ فقد قضيت فترة في كل منها.

أخيراً، دفع أخي مبلغاً ضخماً لإطلاق سراحي، وذهبت معه إلى كينيا حيث يسكن. وبينما أنا هناك، زارنا صديق لعائلة زوجته الذي كان إنجيلي ويدعى موسى. وقال بأنه جاء من أجلي - وبأن الله أوعز إليه ليجدني ومن ثم يصلي من أجلي.

كنت متردداً، ولكنني أصغيت إليه، وبعدئذ سمحتُ له بأن يصلي عليّ. وبصراحة، كنت مستعداً لأي شيء وقتذاك، فلم يكن لي أي خيار آخر. إذ لم ينجح أي شيء آخر معي.

كانت صلاة موسى جبارة. فقد أعانني على التغلّب على إدمان الكحول والمخدرات عندما أمر الشياطين بمغادرتي. فصلّى هكذا: "اخرجوا منه، بسم يسوع." وكلما كان يذكر أسم يسوع كنت أحسّ بشيء غريب. فكنت غالباً ما أسقط أرضاً، وأحياناً كنت حتى أتقيأ. فمن الصعب أن أوصف الموقف. فكل ما يسعني قوله هو أنه في كل مرة كان ذلك الرجل يصلي، كانت صلاته جبارة بشكل لا يُصدّق.

في البداية قلت له: "إنك أحسن من أفضل طبيب ساحر عرفته." (فكان هذا كل ما عرفته عن الموضوع) فضحك وقال: "كلا، أنا لست بطبيب ساحر." وعندما شكرته، أصرّ على أنه لم يقم بأي شيء سوى الصلاة. "لا تشكرني أنا، فأنا لست الطبيب الذي شفاك. إنه يسوع." وعلى الفور صار قلبي يتّقد شوقاً ليسوع. وأردت معرفة المزيد عنه، ومن كان. بعد ثلاثة أشهر توقفت عن الشرب، وانقطعت عن المخدرات.

ذهبت إلى أوغندا في عام 2003. والآن أنا مسيحي، وقد كتبتُ كل الصحف عني، مثلما فعلتُ سابقاً عندما ذهبتُ إلى السجن. فكانت قصة كبيرة: "سامبوتو غير حياته." "سامبوتو يؤمن بالصلاة." أما أنا فذهبت إلى جبل "سجوكو Sseguku" وهو أشهر جبل في أوغندا للصلاة. فالناس يقصدونه من كل حدب وصوب ليكونوا مع الله. وقضيت ثلاثة أشهر محاولاً إيجاد يسوع.

صليتُ واصلتُ كثيراً على جبل "سجوكو"، وسألت الله جميع أسئلتني. كنت أتلقى الجواب نفسه. فكان الجواب يأتي إليّ في الأحلام، عن طريق صوت وكأني كنت أتحدث معه. وحدث هذا الشيء ليلة بعد ليلة، والرسالة كانت دائماً ذاتها: "يجب عليك أن تغفر."

كنت أذهب إلى الكنيسة هناك على الجبل، وكنت أسمعهم يوعظون بالموضوع نفسه. وأنا شخصياً لم أرد أن أسمع، ولكن لم يكن هناك أي مفر منه. وصرت أسمع هذا الصوت مرات ومرات في نومي يقول لي: "ستشفى فقط عندما تغفر للآخرين." غير أنني تابعت العناد والمقاومة لسنة أخرى في الأقل.

وهنا أيضاً، فبالرغم من أنني كنت مسيحياً وتركتُ الشرب ولم أتعاطِ المخدرات بعد، إلا أنني لم أكن قد تحررتُ أو شفيتُ بالكامل. كنت "على ما يرام"، ولكن ما زال كان هناك استياءً في صميم كياني. فهذه كانت المشكلة، لأنه لا يكفي أن تكون مسيحياً، أو حتى أن تحفظ الكتاب المقدس كله. فهذا مجرد نصف البرنامج. فما يهم هو أن تعيش ما تعرفه صائباً – أي أن تعيش الحق. كان يعني هذا بالنسبة لي أمر واحد لا غيره وهو أن أذهب وأسدد ديوني في كل مكان. فكان يلزمني أن أطلب المغفرة والعفو من حيث قد أسأت إلى الآخرين. كان يلزمني أن أغفر لـ "فنسنت"، وأن أغفر لزوجتي.

كانت معركة صعبة. فكنت دائماً أردّ لا. لا! واستغرق الأمر شهوراً. إلى أن جاء يوم عندما أحسستُ فيه بأني لا أحتمل بعد. فكان عليّ أن أتنازل، وأقول نعم. فقلت لنفسي: "أنا جاهز، الآن، وفي الحال، لأغفر لـ 'فنسنت'." ولما فعلت ذلك تحررتُ – وشفيتُ بالكامل، وتمّ كسر قيود كل شيء من الماضي. ودخل السلام إلى قلبي. وحدث كل هذا بسبب جوايي لذلك الصوت عندما قلتُ نعم. اتصلتُ تلفونياً مع زوجتي. وذهبت لأبحث عن "فنسنت". كان في السجن، ولكنني وجدت زوجته "رجينة"، وطلبت منها أن تقول لزوجها "فنسنت" بأني قد غفرتُ له...

عندما طلبتُ من "جان بولس" تحديد بالضبط الأمر الذي دفعه ليغفر لصديقه القديم، قال بأنه بدأ يقلق من أنه هو شخصياً صار يتحوّل إلى قاتل. كما مبين فيما يلي:

أحمد الله على أنني لم أجد "فنسنت" قبل هذا الوقت. أنا شخصياً لم أذي أحداً طوال عمري، إلا أنني كنتُ، بعد هذه المذامح، عاقد النية على أذية "فنسنت" في قرار فكري. فكنت في طريقي لقتله. وحتى لو لم أكن قادراً على فعلها بنفسي، كنت ناوياً على أن أطلب من أحدهم ليقتله. فهذا ما يأخذنا الحقد إليه: حيث ينتهي الأمر بك لتصير قاتلاً أنت نفسك، حتى لو لم يكن لديك أية فكرة عن كيفية القتل.

وأخيراً عندما غفرتُ لـ "فنسنت" بالفعل، أستصعب "فنسنت" تصديق الأمر. فقال لزوجته: "كيف له بحق السماء أن يفعل ذلك؟ بعد كل الذي فعلته معه؟" وكان متأكداً بأنها خدعة، مجرد حيلة سياسية. إلا أنّ زوجته قالت له: "لقد تكلمت مع 'سامبوتو'. وإن لم تقبل مغفرتك، فهذه مشكلتك، ولكن دعني أن أقول لك أمراً، إنّ الذي يغفر لك هو ليس 'سامبوتو' بل الله. إنّها النعمة."

صَدَّقَنِي "فنسنت" أخيراً، وخلق هذا الأمر شيئاً عجبياً. فقد كانت زوجته سابقاً لا تسمح له بالرجوع إلى البيت. فلم تقدر أن ترى نفسها تعيش مع قاتل غير تائب. أما عندما قبل "فنسنت" مغفرتي له (إذ قد رأى بأن الله فعلاً كان وراء كل شيء) صار بمقدوره التوبة ومساحة ذاته. بعد ذلك، غفرت له زوجته "رَجِينة" أيضاً. فقالت له: "إن غفر الله لك عن طريق 'سامبوتو'، فيجب عليّ أنا أيضاً أن أغفر لك." كما غفر له أيضاً جميع أولاده. وهو الآن ينعم في بيته. وأسرته جميعها معاً. وعندما أזורهم أتناول الطعام سوية معهم. فهكذا تعمل قوّة المغفرة.

والتغيّرات التي طرأت على حياة "جان بولس" جمّعت أسرته كذلك. فقد عاد "جان بولس" إلى أسرته في كندا في عام 2005. فاسمعه يقول:

منذ ذلك الوقت حدثت عجائب كثيرة في حياتي. فقد تكلم الله لنا بفم مربية أبتنا المعوّقة، وبيّنت لنا بأنها ليست بنت كسيحة وإنما ملاك. فقالت لنا: "لقد خلق الله ببتكم 'كلوديا'، وفي نظره لا يوجد أي عطب فيها. وأنتما تشعران بالغم من طفلة كهذه. حتى أنكما لا تريدان النظر إليها. والأولى بكم أن تفتخروا بها."

وفي المرة القادمة التي ذهبت فيها لزيارة "كلوديا" (فهي لم تكن قادرة على السكن معنا، بل كانت تسكن في قسم خاص) بكيتُ، وشاهدني أبني أبكي. فسألني: "لماذا تبكي؟" بعد ذلك صلينا معها. وأخيراً تمكنتُ من أن أقرّ وأقول: "لقد أنعم عليّ الله بهذه الطفلة". وبفضل مربية "كلوديا" بدأتُ أحسّ بأن الله بالحقيقة قد باركني عندما رزقنا بمثل هذه البنت. واليوم، وبدلاً من إلقاء التهم بعضنا على بعض بسبب حال ابنتنا، أدركنا أنا وزوجتي بأن ابنتنا هي كنز لا يقدر بثمن. وأعلم الآن سبب عدم موتي عندما كنت أحاول قتل نفسي بالمخدرات والشرب. فقد حفظني الله لأكون والداً للعائلة.

وحسبما تبرهن قصة "جان بولس" (مثلما تفعل جميع قصص هذا الكتاب)، فإن الغُفران يُعتبر مسألة شخصية مجتة. فكل منّا يجب عليه أن يجد شفاءً داخلياً، بأساليبنا الشخصية، وفي زماننا الذي نعيش فيه. أما على صعيد آخر، فإنّ الغفران هو أكثر من ذلك. فحتى لو كان بمقدوره أن يربط الناس بعضها ببعض، إلا أنّ تأثيره يشبه "تأثير الموجة" الذي يمكن أن نلمسه على نطاق أوسع بكثير. وفي الحقيقة والواقع، يمكن للغفران أن يكون قوة اجتماعية مقتدرة، فهو له القدرة على أن يغيّر ويقوّي جماعات من الناس بأكملها.

على مسار التاريخ، كان كل من دور "مارتن لوثر كنج" في حركة الدفاع عن حقوق الإنسان في الولايات المتحدة الأمريكية، ودور "غاندي" في صراع الهند من أجل الاستقلال، هما المثالان الأكثر معروفين في هذا الموضوع، ولكن هناك الكثير غيرها. فيمكننا كتابة مجلدات عن دور "هيئة الحقيقة والمصالحة" في دولة جنوب أفريقيا، وعن جميع جلسات التحقيق التي عقدها في أواسط التسعينيات. وتحت رعايتها وإرشادها، صارت المئات من كل من الضحايا وأيضاً من مرتكبي جرائم سياسة التفرقة العنصرية الوحشية للبلد، صارت تتدفق لمواجهة الماضي المرير، أملاً في شفاؤها وبناء مجتمعاً أكثر استقراراً.

في عام 1999 وكذلك في عام 2000، سافرت مع زوجتي إلى أيرلندا الشمالية كمشاركين في رحلة خاصة من أجل السلام وقابلنا المئات من الناس - وحتى المئات من الصغار الذين كانوا أكثر حماسة - الذين اجتمعوا كلهم ليشفوا جراح تلك المنطقة التي كانوا يسمونها "مشاكل" عن طريق ترويح الحوار والمصالحة ما بين المواطنين الكاثوليك والبروتستانت.

بعد حوالي عشرة أعوام، حدث الشيء ذاته في رواندا. خذوا على سبيل المثال بلدة "نياماتا Nyamata" التي تقع جنوبي العاصمة كيغالي. فعندما بدأت المذابح الجماعية في ربيع عام 1994، وجد كل من "موكامانا" - فتاة من قبيلة توتسي - و "أزيري" - مزارع من قبيلة هوتو - وجدا نفسيهما في معسكرات متضادة.

ففي أحد أيام الربيع عندما عادت "موكامانا" إلى البيت راجعة من البئر لجلب الماء، وجدت بأن عائلتها كلها قد تمّ قتلها وتقطيعها أرباً أرباً بالمديّة (آلة الحش). فاختبأت بأحد الحقول، ومن ثمّ فرّت إلى دولة بوروندي المجاورة.

و "أزيري" المزارع لم يشترك في هذه المجزرة بالذات، لكنه قد اعترف لاحقاً بقتل آخرين في المنطقة نفسها.

أما اليوم، فيعيش الاثنان كالجيران، حتى أنهما يذهبان إلى الكنيسة نفسها أيام الأحاد. وقال "أزيري" لأحد الصحفيين من IRIN وهي شبكة المعلومات الإنسانية التابعة للأمم المتحدة: "إن بعضنا يساعد بعضاً". كما أضاف قائلاً: "حينما يمرض واحد من جيرانا، نزوره في البيت." حتى أنه يشير إلى شيء أكثر أهمية قائلاً: "وأولادنا أصدقاء."

ويعيش كل من "موكامانا" و "أزيري" مع حوالي أربعين أسرة أخرى في مجتمع يتألف من الناجين من المذابح ومن مرتكبيها ممن اعترفوا بذنبهم. والقرية المُستحدثة التي أطلقوا عليها اسم "إمدُجودو Imidugudo" (ومعناها قرية المصالحة) كان قد بدأها قسيس أنجليكاني (من الكنيسة الأنجليكانية)

ويدعى "ستيفن كاهيجي Steven Gahigi"، الذي كان كل أباه وأمه وإخوته قد قُتلوا في عام 1994.

كان "كاهيجي" قد ظنَّ بأنه قد فقد قابليته على الغفران، فقال: "داومت على الصلاة إلى أن رأيت في إحدى الليالي صورة يسوع المسيح على الصليب... وتأمّلتُ كيف هو غفر للآخرين، فعلمتُ بأنني وغيري من الناس نقدر أن نغفر أيضاً." وبفضل هذه الرؤية امتلأ "كاهيجي" إلهاماً وعزيمة وأخذ يعظ بالغفران ويحكي للناس عنه. ولم يقمُ بذلك في بلدة "نياماتا" فحسب بل أيضاً عند زيارته للسجون حيث كان مرتكبي الجرائم من قبيلة هوتو من الذين كانوا ينتظرون محاكمتهم. (علماء أن الحكومة في عام 2003 قد أخلت سبيل الآلاف من السجون لتخفيف شدة الزحام). ولم يكن تعلمُ المغفرة أمراً هيئناً، حسبما قال القرويون، فقد أقرت "موكامانا" بذلك قائلة: "لفترة طويلة، لم أكن أعتقد مطلقاً بأنني سأقدر أن أغفر للآخرين."، ولكن حينما يستعد الناس لمواجهة ماضيهم بأمانة، ستشفى الجراح النفسية القديمة، وسيتيسر لأشياء عجيبة أن تحدث. ويبدو أن هذا الأمر هو الذي جعل المغفرة ممكنة في قرية "إمدجودو"، حيث يحكي فيها الناس لأولادهم عن دورهم في عام 1994. ويقول "خافير ناماي Xavier Namay" وهو أحد مرتكبي المذابح من الذين قد أقرّوا بشناعة ذنهم: "إنّ لمذابح الإبادة الجماعية لها آثار وعواقب وخيمة على كل الذين اقترفوها والذين نجوا منها." ويردف قائلاً: "يجب أن يعرف أولادي الشيء الذي اقترفته لكي يبنوا هذا البلد."

وفي السنين الأخيرة نرى ظهور مبادرات ماثلة في مناطق أخرى في أرجاء العالم. مثلاً في إسرائيل واندونيسيا وبغداد ودول البلقان ومجموعات مثل "فرق صانعي السلام المسيحية Christian Peacemaker teams"، وهيئة خدمات الأمريكيين الأصدقاء American Friends Service Committee، وغيرها من المنظمات الغير حكومية، التي كلها تعمل على ترويج المصالحة على اعتبارها السبيل الوحيد للتغلب على النزاعات العرقية. وفي أغلب الحالات يحققون إنجازات متواضعة، إذا أخذنا بنظر الاعتبار كبر حجم القضية التي يتناولونها بكامل أبعادها. وغالباً ما يتبع انتصاراتهم عراقيل واتهامات من قبل أولئك الذين لم يجدوا تفاعلاً وأيضاً من قبل المثاليين. ففي رواندا على سبيل المثال، حيث حضرتُ مؤتمراً عن المغفرة والتسامح في شباط من عام 2009، قابلت هناك العديد من الذين يقدمون طاقاتهم لبناء مجتمع جديد مبني على المحبة والثقة. ولكن هناك ولحد الآن أعداداً أكثر منهم ممن يدعون بأن المصالحة هي حلم فارغ. وبعض من هؤلاء يروّجون علناً أيديولوجيات ومفاهيم قديمة من التي تؤدي إلى مذابح الإبادة الجماعية. وفي مواجهة واقع كهذا فإن "جان بولس" يُعبّر حقيقة واقعة. فيقول:

صحيح أن دوامة العنف تبدو غالباً بلا نهاية. فكل حادثة منها تستدرج أخرى. إذ أن كل شخص أو كل جماعة لهم عدوهم الشخصي كما يبدو الأمر. ومما يثير السخرية، فإن هؤلاء "الأعداء" غالباً ما يكونون غير موجودين حوالينا بعد. وفي حالات كثيرة فهم لم يعودوا موجودين حتى على قيد الحياة. أما بالنسبة لي، فإن العدو الحقيقي هو ذلك الذي نواجهه كلنا، ألا وهو: الغضب والاستياء الذين نحملهما معنا خلال اليوم وأينما ذهبنا؛ وكذلك الخوف والقلق والوسواس الذين ننام معهم كل ليلة. فلا نحتاج إلى ناس آخرين! فإننا نقتل أنفسنا.

ما زال الناس مأسورين: بالخوف، والغضب، وعدم الثقة، والتشكيك، والانتقام. ولا تزال هناك مرارة الكراهية والاستياء، ولا تزال نظريات التفرقة العنصرية التي كانت وراء المذامح الجماعية تُدرّس في مدارسنا. والناس الذين قد قضاوا سنيناً وراء القضبان يعودون الآن إلى بيوتهم، وإذا قابلت أحدهم - إذا قابلت مَنْ قتل ابن عمك أو عمك أو أمك، وتكلمت معه - فلا يسعك التكلم معه مثلما كنت تتكلم معه سابقاً. فالأمر مستحيل بدون محبة. فالمحبة وحدها القادرة على إعتاقنا وتحريرنا من قيود الأحقاد الماضية وأيضاً وحدها التي توافقنا بالشفاء الحقيقي.

ويتعذب الكثير من الناس في العالم من جراء هذا، فالأمر ليس محصوراً في رواندا فقط. ومما يزيد الفاجعة، هو أنهم يتصرفون كما لو أنه ليس هناك أي مخرج من هذا المأزق. ويقولون: "إن مثل هذه الأمور تحدث. فهذا هو الطريق الذي تسير عليها الحياة"، ولن يتكلموا عن الحل، الذي هو الغفران. غير أن تقليداً من المغفرة هو وحده الكفيل بإيقاف دوامة العنف واليأس ويجرك عوضاً عنها دوامات جديدة من الأمل والمحبة.

ولن هذا يحدث بين ليلة وضحاها، لأن الغفران هي مسألة اختيار شخصي بحت. فالغفران يستقضي من المرء أن يجري تفحصاً كاملاً لروحه وكيانه. ويحتاج الناس إلى أن يتم توضيح الدواعي والأسباب لهم لخوض كل هذا العناء. ويحتاجون إلى سماع قصصاً حقيقية عن الغفران، لكي يتأثروا. كما يحتاجون إلى رؤية شاملة عن كيفية سير الأمور إذا سمحوا للغفران أن يقودهم، حتى يحصلوا على الأمل والاندفاع.

إن رؤية كهذه تشبه فحوى أغنية قديمة للكفاح من أجل الحرية من الستينيات، حيث تقول:

"لا تقوى يد رجلٍ واحد على كسر السجن

ولا تقوى أيدي رجلين على كسر السجن

ولكن إن كان اثنان مع اثنان مع خمسين ينتجون مليوناً

فسنرى ذلك اليوم يتحقق..."

فهذا هو الأمل الذي جاء بضحايا ومرتكبي جرائم "التصفية العرقية" في عدد من القرى في كوسوفو ليتجمّعوا ويحرقوا تربة المزارع المشتركة؛ وهو الشيء نفسه الذي دفع الناجين المسيحيين جراء اضطهاد المسلمين في عامي 1998 - 1999 في جزر "مالوكا Maluka Islands" الأندونيسية ليغفروا إلى من حرق منازلهم واغتصب زوجاتهم وبناتهم.

وهو يستمر كذلك بإلهام نشاطات إبداعية أخرى في كافة أنحاء العالم، مثل المشروع المسرحي الذي أقيم في مدينة "بيتسبرج Pittsburgh" الأمريكية في صيف عام 2008 الذي جمّع فيه يهوداً إسرائيليين ومسلمين عرب ومسيحيين أمريكيين، من أجل مجتمعاً إنسانياً. وقد استعملوا أسلوب المشاهد المسرحية التي كانت تحكي قصص المعاناة لكلا الطرفين، وتمّ دعوة الخصوم بعدئذ لتبادل الأدوار ليتخيلوا أنفسهم وهم في مكان وظروف خصومهم، وناقشوا حلولاً جديدة عوضاً عن مجرد تكرار إعادة المشاكل القديمة. (بعدئذ، صمّم المشاركون أن يأخذوا معهم إلى بلادهم ما تعلموه هناك، لاستخدامه كأداة لصنع السلام.)

ويقول مدير المشروع "روني أوستفيلد Roni Ostfield": "هناك الكثير من المخاوف وسوء الفهم والجروح لدى جميع الأطراف." ويردف قائلاً: "إنه ألم حقيقي، ولكننا دائماً نأمل بأنه إذا فتح شخص واحد قلبه للمحادثات مع الطرف الآخر، ربما سيؤثر على عشرة أشخاص آخرين، ومن ثم لها أن تنمو من هناك."

ولما لا؟ فقد انتهرت في إحدى المرات الأخصائية في علم الإنسان "مارجريت ميد Margaret Mead" موضوع التشكيك في قدرات المجاميع الصغيرة، قائلة: "يجب علينا ألا نشك أبداً في قدرة أية جماعة صغيرة من الأفراد الملتزمين على تغيير العالم... بالحقيقة والواقع، أن أمثال هؤلاء هم الذين قد أثروا في العالم." وصدقت كلماتها مجدداً قبل عدة سنوات عندما استيقظنا على حادثة مجزرة مدرسة جماعة الـ أمش Amish.

في الثاني من شهر تشرين الأول عام 2006، دخل سائق شاحنة لبيع الحليب واسمه "تشارلس روبرتس Charles Roberts" ومن دون إعلام مسبق، دخل إلى أحد صفوف مدرسة جماعة الـ أمش التي كانت قريبة من مكان سكناه في شرق ولاية بنسلفانيا، وأمر الفتيان والمعلمين بترك المدرسة. وبعد ربطه لأقدام الفتيات المتبقيات، استعد "روبرتس" لرميهن بأسلوب الإعدام، وبنندقية رشاشة ومعه 400 إطلاقه من العتاد الذي جلبه لهذه المهمة.

توسلت إليه أكبر فتاة كانت موجودة هناك، التي كانت بعمر 13 سنة، قائلة: "أطلق النار عليّ أولاً ودع الصغيرات يذهبن." وعندما رفض عرضها، أطلق النار على جميعهن، قاتلاً خمس منهن وتاركاً الأخريات بجراح خطيرة. ومن ثم أطلق النار على نفسه أثناء انقراض قوات الشرطة على المبنى. لا يعلم أحداً دوافعه الحقيقية، ولكنه كان قد أخبر الفتيات في المدرسة بأنه كان غاضباً على الله لأنه أخذ أخته الصغيرة منه، التي ماتت كطفلة قبل عدة سنوات.

وما هي إلا ساعات حتى استولت هذه القصة على وسائل الإعلام في العالم. وعند المساء، ملأت الفرق التلفزيونية تلك القرية الصغيرة المسماة "نكل ماينز Nickel Mines". وبقوا هناك حوالي أسبوعاً كاملاً، إلى أن تمّ دفن القاتل والضحايا.

وعلى بشاعتها، فإن المجزرة بحد ذاتها قد طغى عليها فصل ثاني عجيب أضيف إلى القصة ألا وهو: الموقف الغفور للأسر التي فقدت بناتها. في الواقع، كان الدم بالكاد قد جفّ على أرضية المدرسة عندما ذهب أفراداً من تلك الجماعة المتدينة جداً ليزوروا أهل وأرملة الرجل المسلح ليقدّموا لهم تعاطفهم وليسألوا عن أحوالهم. وتعدى موقفهم الكلام - فقد أقامت جماعة الـ "أمش" صندوقاً مالياً لجمع التبرعات لأرملة القاتل وأولادها. كما جمعوا الطعام لأسرة القاتل. وقد صادف أحد الصحفيين رجلاً من الـ "أمش" يجوب حقولاً عديدة ويجمع التبرعات، في يوم المجزرة نفسه. والأمر الأكثر عجباً، فقد كان عدد أسر الضحايا الحزينة حوالي نصف عدد الذين جاءوا إلى مراسم دفن القاتل، وهناك أيضاً أبدوا مشاعر المحبة ثانية لأرملته، "ماري"، ولأولادها الثلاثة.

يحبُّ أغلب عامة الناس جماعة الـ "أمش"، لكن في هذه الحادثة، رأى الكثيرون بأن رد فعلهم لعملية القتل أمر لا يصدق. كما أشار إلى ذلك أحد مذيعي الأخبار، العريق الخدمة، في نشرته التلفزيونية: "كل الأديان تعلّم عن الغفران، ولكن لا أحد يعمل بها فعلاً مثلما تسعى جماعة الـ "أمش" على فعله. فما الفرق يا ترى؟"

لا أعتقد بأن الأمر كان هيئناً بالنسبة لجماعة الـ "أمش" ليغفروا. فأنا شخصياً أعرف الكثير منهم، ولدي أصدقاء ممن يعرفون عدداً من الأسر المبتلية. فهم ليسوا أكثر قداسة من غيرهم: بالحقيقة، لم يكن الغفران بالنسبة لهم، كما هو الأمر بالنسبة للكثيرين، مسألة قرار يتخذه المرء لمجرد مرة واحدة في العمر. فقد اقتضى الأمر صراعاً وتجديد الالتزام، وعلى صعيد يومي أحياناً. فقد قضت إحدى الضحايا شهراً في غيبوبة؛ في حين تُلف دماغ أخريات، وسيحتجن إلى رعاية طبية خاصة باستمرار. وبعض العوائل خائفة جداً بحيث أنها لا تزال تدرّس أولادها في البيت. وكل من مسّه ذلك الصباح الرهيب سيظل يتعامل طيلة حياته مع الرواسب النفسية له.

أما إذا أطلقنا العنان للغضب والعداء ليسيرنا جهاراً، الأمر الذي أمسكت عنه جماعة الـ "أمش" لقرون من الزمان، فسيكون الأمر مدمراً - إنه هدرٌ للطاقات التي ستستحوذ على نفوسهم وتتخذهم كرهائن وتقتلهم في النهاية، تماماً مثلما أخذت بناتهم كرهائن وقُتلن من قبل غضب أحد الأشخاص. وبالنسبة للمخلصين من أتباع يسوع المسيح فإن الخيار الوحيد أمامهم هو ذلك الذي قدمه لنا على خشبة الصليب، حين قال: "يَا أَبْنَاهُ اغْفِرْ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ."

إن الموقف الذي يريده منّا يسوع المسيح ليس موقفاً محبوباً من قبل الأكثرية ولا له شعبية واسعة في يومنا الحاضر، حتى في الأوساط الدينية. وفي حالات نادرة حيث يتم ترويح موضوع المغفرة علناً، نرى بأن رد فعل الناس غالباً يرمي إلى زرع الشكوك في الموضوع، أو يسخر منه سخريه محضة. هذا ما حصل في عام 2005 عندما فاجأت الكنيسة الأرثوذكسية الصربية المراقبين عبر أوروبا بطلبها لنظام "ميلوسفيج Milosevic". وجاء في الافتتاحية لبيان رسمي أصدرته ما يلي: "نحن نعرض بإخلاص المصالحة والمغفرة المتبادلة لأشقائنا المواطنين الألبان."

وقللت الانتقادات من شأن الاعتذار على أنه حركة سياسية، ولكن كان هناك آخرون ممن احتضنوا هذه الفرصة من أجل فتح الحوار. فقد أشاروا إلى أنه مهما كان تأثيرها، إلا أنها المحاولة الأولى من نوعها التي تميزت بتشخيص الأحقاد بكل أمانة، تلك الأحقاد التي أدت إلى وحشية تلو الأخرى في أرجاء المنطقة وعلى مدى أغلب سني العقد الماضي.

وعلى المنوال نفسه شكك المتشائمون بمصداقية رئيس الوزراء الأسترالي "كيفن رود Kevin Rudd" عندما، وفي بدايات عام 2008، وجه اعتذاراً رسمياً إلى سكان البلد الأصليين - الأبوريجين - عن سياسات الحكومة الطويلة الأمد في التمييز العنصري، والتشدد في حصرهم وعدم السماح لهم بالانتشار، وأيضاً عن الاعتداءات التي تحصل على أرض الواقع. في حين رحّب آخرون بهذا الخطاب. وكان أحدهم قسيساً من دولة جنوب أفريقيا، وهو الأب "مايكل لابسلي Micheal Lapsley" فقال:

مما لاشك فيه، أن الاعتذار لا يزيل حقيقة الظلم الذي تم إقراره ولا الألم الذي لا يزال تشعر به أجيال متعاقبة من السكان الأستراليين الأصليين. ومع ذلك، ليس هناك أيّ شك من أن اعتراف رسمي كهذا... يمكن أن يكون مرهماً للجروح، وهو خطوة كبيرة ونقطة تحول باتجاه رحلة طويلة من إعادة إرساء أركان العدالة وكذلك الشفاء للجميع...

كنتُ أسمعكم على مدى السنين تتكلمون عن إحساسكم الشخصي بالذنب والخزي على ما جرى في تاريخ بلدكم. وأنا متأكد اليوم بأن الكثير منكم أذرفوا دموع الفرح لقدوم هذا اليوم وبأسلوب مشرف لمواجهة بصراحة الفظائع التي حدثت في الماضي ولبدء رحلة جديدة.

لم يكن ردّ الأب "لابسلي" مجرد ردّ أحد المراقبين. فقد تمّ اضطراره على يد حكومة جنوب أفريقيا لنضاله ضدّ نظام التمييز العنصري الذي كان في البلد، وقد حُرِمَ هذا الناشط المعروف دولياً بدفاعه "لتجديد العدالة" من دخول البلد، ولاحقاً فقدّ كلتا يديه وإحدى عينيه بانفجار طرد مفخخ. ومنذ ذلك الوقت كان يعمل مع ضحايا التعذيب وأسس جمعية مدينة "كيب تاون" لشفاء الذكريات، حيث قد قدم المشورة والمساعدة إلى مئات الناجين من العنف. وقد تعلّم بأن الاعتذار - مهما كان شكله - هو بالغ الأهمية لأنه في كثير من الأحيان يمثل الخطوة الأولى الحاسمة التي بدونها لا يمكن لأيّ حوار أن يخطو أية خطوة، حتى لو لم تتطرق إلى موضوع مسامحة بعضنا لبعض.

إن قيمة عمل الأب "لابسلي" في مدينة "كيب تاون" لا يقدر بثمن وهو يتعدى حدود المدينة، لأنه يرينا مدى وعورة السير في طريق المصالحة وشكل دربه الحقيقي، وليس فقط فيما يخص الأذى الشخصي الذي تلقاه، بل أيضاً بين الناس الأضواء جسدياً ممن لهم تاريخاً طويلاً ولقرون من الحروب والحقد المتراكم.

باختصار، يشمل عملاً كهذا الاستماع إلى الناس الذين عانوا من العنف، سواء أكانوا من مرتكبي الجرائم أم من الضحايا، بالإضافة إلى مساعدتهم للتعامل مع مشاعرهم مثل الغضب والكراهية والشعور بالذنب. أنه يعني توجيههم نحو المصالحة، وتعليمهم عن الغفران. ويتطلّب الأمر احترام التعددية العرقية والثقافات الدينية المتعددة على كوكبنا، والتسليم بأن جميع الناس هم كائنات روحية ولهم قيمة جوهرية. وأخيراً، يرينا الموضوع بأنه ليس هناك أي طريق مفتوح بدون استعداد جميع الأعداء السابقين لتحمل مسؤولية الماضي معاً، ومن ثم الوعي بأن كل إنسان يمكنه أن يكون ضحية ومعتدي.

أن مواجهة الذات بهذا الأسلوب - أي أن ترى في داخل نفسك احتمالية أن تصير أنت بنفسك من الدّ أعدائك - إنما هو تمرين صعب. إلا أنه يجزّنا أيضاً. لأنه وبحسب ما تبينه فصول هذا الكتاب بكل وضوح لا توجد نصرّة بدون صراع، ولا خلاصاً بدون ندم، ولا شفاءً بدون وجع. فليس هناك ربيعاً بدون شتاء أو ما إلى ذلك. فما لم تثمّ البذرة وتدفن، لن تكون هناك أية حبة جديدة، كما يصفها الإنجيل.

في عالمنا المنساق بالإثارة السريعة الإيقاع وأيضاً بدرجة كبيرة من الارتباب، فإن نبأ عن العمل الشاق والطويل الأمد لبناء قرية دمرتها المذامح نادراً ما نراه في النشرة الإخبارية المسائية. وأرى شيئاً مماثلاً يحدث في عملي عندما أتكلم عن المغفرة في المدارس العامة (ضمن برنامج إيقاف الدوامة Breaking the Cycle)، فلا ينجذب الصحفيون أبداً إلى انعقاد مجلس مدرسي عن موضوع

اللاعنف، في حين تتشوّه سمعة أية مدرسة في الحال وعلى طول إذا تعرضت إلى إطلاق نار، ولكن، لماذا يجب أن يُقاس النجاح بالتغطية الإعلامية أو مقدار شعبيته؟

قالت "دوروثي داي Dorothy Day"، وهي من إحدى معارفي القدماء، والتي عملت لعقود في خدمة فقراء مدينة نيويورك، قالت بأننا عندما نحاول تغيير العالم فلا يكمن العائق الأكبر في الناس الآخرين أو في المؤسسات الأخرى، بل في مشاعرنا نحن، ألا وهي مشاعر فتور العزيمة والإحساس بعدم الجدوى. وقد انتهرت في إحدى المقالات الصحفية، قائلة: "نحن نستطيع تغيير العالم، إلى حد معين. فيمكننا رمي قطعة من الحجر إلى البحيرة ومن ثم تبيّن بأن انتشار موجاتها المائية التي تستمر بالاتساع ستصل إلى كافة أرجاء العالم."

إنني متأكد بأن هناك في العالم قصصاً عن المحبة والغفران أكثر من قصص الحقد والانتقام. فكم ستنتظر أنت إلى أن تجعل قصتك مسموعة؟ متى سترمي بحجرك إلى البحيرة لتبدأ في صنع الموجات المائية؟

هوذا الكلُّ قد صارَ جديداً

على الرُّغم من أننا نطلب العدالة، إلا أننا يجب أن نُفكّر فيما يلي: إنّه في إطار العدالة لا يمكن لأيّ منا أن يرى الخلاص، ولكننا نُصلي طلباً للرحمة، وهذه الصلاة بحد ذاتها تُعلّمنا كلنا أن نقدم أعمال الرحمة

وليم شكسبير William Shakespeare

إنّ العُفْران هو قُوّة قادرة. فهو يُجرّنا من ماضينا، وبه نتغلّب على الشر. ويُمكنه أن يشفي الشخص الذي يغفر والشخص المغفور له. في الواقع، يُمكن أن يُغيّر العُفْران العالم، إن سمحنا له أن يتدقّق من خلالنا بلا رادع. ولكن كم من المرّات تجدنا نقف في طريقه لنعوّقه ولا نجروء على إطلاق العنان لقوّته! فنحنُ مُمسك بمفاتيح العُفْران في أيدينا، ولكن يجب علينا أن نختار: "هل سنستخدمها كلّ يوم أم لا؟"

في السنة الماضيّة تقابلت مرتّين مع رجل ينتظر الحكم بإعدامه في ولاية كنتيكت، وهو "مايكل روس" في السابعة والثلاثين من عُمره، وهو خريج من جامعة كورنيل الشهيرة. وهو سفّاح ومُغتصب للعديد من الضحايا. ولا يُمكن لأحدٍ أن يُنكر فظاعة جرائمه، ولا يُمكن لأحدٍ أن يتجاسر ليتكلم بالنيابة عن أسر ضحاياه، لأنّه إن فعل، سيستصغر بل وسيستسرّ على جسامة المُعاناة والألم الذي ما زالوا يجتمونونه. ولكننا من ناحية أخرى، يتحتم علينا ألا نتغاضى عن رؤية اشتياق "مايكل" نفسه إلى المغفرة والشفاء كذلك. فاسمعه يقول:

أشعر بإحساس عميق بالذنب. نعم، فأنا أشعر بالذنب يغمري، لدرجة أنه يُحيط نفسي بالظلام، وسُحِبَ كراهية النفس المُعذِّبة، والندم والأسى... فأنا أتوق إلى المُصالحة أكثر من أي شيء آخر. المُصالحة مع أرواح ضحايي، ومع عائلاتهم وأصدقائهم، وأخيراً أتوق إلى المُصالحة مع نفسي ومع الله.

هل يحق لنا أن ندير ظهورنا لمثل هذا الرجل؟ أليس من الأفضل أن نُواجهه بكُلِّ الرُعب الذي تسبَّب فيه باعتباره أخ لنا في البشريَّة؟ ليشفى هو أيضاً مثلما كلنا يحتاج إلى الكلام الصريح والموجع ومن ثم الشفاء؟

في بداية هذا الكتاب كتبتُ عن رجل قتل فتاة تبلغ السابعة من عُمرها. وسألتُ: "هل يمكنُ العُفْران لرجل مثل هذا؟" لقد لاحظتُ تغييراً عجبياً لدى هذا الرجل خلال الأشهر التي تلت أول لقاء لي معه. فبينما كانت بالبداية أحاسيسه ومشاعره خَدِرة وكان يرى جرمته على أنها، بالرغم من بشاعتها، نتيجة حتمية لأمراض المجتمع، إلا أنه بدأ يتحمَّل مسؤولية أفعاله بعدئذ. وأخذ يتعدَّب من حاجته الماسة إلى التوبة وإلى المغفرة - وأيضاً بكى لأجل الآخرين أكثر من بكائه على نفسه. وفي مقابلاتي مع هذا الرجل، رأيتُه يجابه الشر القابع في جرمته وأخذ تدريجياً يقرُّ بمسؤوليته وأيضاً يتندم.

هل يمكنُ العُفْران لرجل مثل هذا؟ إن كُنَّا نؤمن حقاً بقوة العُفْران القديرة على تغيير الناس، فسيتحتم علينا الأيمان بأن مثل هذا الرجل يمكنه أن ينال العُفْران كذلك. وطبعاً يجب علينا ألا نُقلِّد مطلقاً من شأن جرمته التي ارتكبها أو إغماض العين عنها. وفي نفس الوقت، يجب علينا أيضاً ألا نُخرمه من فُرصة التغيير. فكما قال "مارتن لوثر كنج": "إنَّ العُفْران له القُدرة على تغيير العدو ليُصبح صديقاً." والحقيقة هي أنَّ العُفْران غيَّر حياة هؤلاء الذين ذكرنا قصصهم في هذا الكتاب. كما غيَّر البلدة الصغيرة التي تُدعى "موتلينجن" في الأربعينيات من القرن التاسع عشر. لذلك يجب علينا أن نُؤمن أنَّ العُفْران قادر على تغيير العالم كلَّه اليوم.

سيرة المؤلف

وصلت مبيعات كتب المؤلف "يوهان كريستوف آرنولد Johann Christoph Arnold" في مواضيع تنشئة الأولاد والزواج والموت وصنع السلام والعُفران إلى أكثر من 400,000 نسخة فضلاً عن النسخ المنشورة باللغات المختلفة. فهو كاتب ذو تجارب غنية بصورة غير مألوفة وذو بصيرة شخصية. وهو قسيساً أيضاً حيث قد قدم المشورة والنصح مع زوجته "فيرينا Verena" لآلاف من الأشخاص خلال الثلاثين السنة الماضية، من متزوجين وأطفال ومراهقين؛ ومدمنين ونزلاء السجون وضباط القوات المسلحة؛ ومعلمين وطلاب؛ والمريضين بأمراض مزمنة.

و غالباً ما يجري دعوة "آرنولد" كضيف في الندوات التلفزيونية وله شعبيته كمتحدث في المدارس والمؤتمرات الدولية فيما يخص دور العُفران في معالجة الصراعات باللاعنف، وأهمية دوره كخطوة في طريق المصالحة. كما يدير برنامجه الخاص المعروف بسم "إنهاء الدوامة Breaking the Cycle" في مجالس المدارس والذي يتخصص في معالجة انتشار العنف في المجتمع وترويج المغفرة بين صفوف الطلاب والمواطنين. وباعتباره ناقد اجتماعي، فقد اشترك في مبادرات لإحلال السلام والعدل في مناطق مختلفة من العالم. وقد أخذته رحلاته في المدة الأخيرة إلى أوروبا والشرق الأوسط وأمريكا الوسطى وجنوب شرق آسيا وأفريقيا - وإلى مدارسها ومستشفياتها وسجونها ومعسكرات لاجئها. ولدى "آرنولد" وزوجته ولدين وست بنات وحوالي خمسين حفيداً، ويسكنون في شمال ولاية نيويورك.

المجتمع الأخوي

Church Communities International

إن جماعة "المجتمع الأخوي" هي حركة دولية مسيحية ملتزمة بحياة البساطة والحياة المشتركة ونبذ العنف. وعلى غرار المسيحيين الأوائل وغيرهم من الحركات المسيحية الراسخة عبر التاريخ، فقد ترك أفراد هذه الحركة المُلْكِيَّة الخاصة مفضّلين صيغ قملك مشتركة أكثر وأكثر. ولا يُقدّم الناس فيها أموالهم وممتلكاتهم فحسب، بل أيضاً وقتهم ومواهبهم أيضاً، وبصورة طوعية. ومحور التزامهم يتضمن تكريس ذاتهم للخدمة والتفاني، ومحبة القريب والعائلة، والأمانة لتعاليم يسوع المسيح.

وقد أسّس هذه الحركة العلامة اللاهوتي "أبرهارد آرنولد Eberhard Arnold" في ألمانيا في عام 1920. وعُرفت سابقاً باسم "برودرهوف"، وهي تسمية ألمانية تعني مكان الأخوة، والتي يرجع أثرها الإيماني إلى حركة الـ أنابابديست Anabaptist وحركة الأخوة الهوتريين Hutterian في القرن السادس عشر في أوروبا عند زمن الإصلاح. وبعد أن أجبرهم النظام النازي على مغادرة ألمانيا في عام 1937، التجئوا إلى مجتمعهم الأخوي الشقيق في إنكلترا والذي لم يدم أكثر من 5 سنوات. بعدئذ اضطرت الجماعة بأسرها وبسبب ظروف الحرب العالمية الثانية إلى الرحيل إلى أمريكا اللاتينية. أما عن أول مجتمع لهم في الولايات المتحدة الأمريكية فكان في عام 1954. وانتقل في عام 1960 جميع الأعضاء من بقية الدول إلى مجتمعاتهم للحياة المشتركة في أمريكا وإنكلترا.

والآن توجد العديد من المجتمعات التي تعيش حياة أخوية مشتركة في عدد من الدول مثل الولايات المتحدة الأمريكية وإنكلترا وألمانيا وأستراليا وباراجواي، ويُقدّر عدد نفوسها حوالي 3000. تشترك الحركة في عدد كبير من الخدمات الاجتماعية وفعاليات وأحداث مجتمع البلد، بدءاً من زيارة السجون وانتهاءً بالعمل مع المشردين في الشوارع. وتعارض الجماعة بشدة عقوبة الإعدام، ولها

تأريخ طويل في ترويج العدل والسلام والمصالحة على صعيد كل من السياسة والحياة الشخصية للناس، ولاسيما في مجال تقريب العلاقات بين الأجناس المختلفة وأيضاً حوار الأديان. وفي الوقت الذي يصمّم فيه الكثير من أحفاد الحركة الأصليين أن ينضموا إلى المجتمع الأخوي، إلا أنّ العضوية مفتوحة أيضاً لكل بالغ يبحث عن حياة أساسها الإيمان وقوامها البساطة والخدمة. ويشتغل جميع أعضائها بدون أجور، وبالتزام العفّة في علاقاتهم مع زملائهم في العمل. والضيوف مرحب بهم، فالحركة تستقبل آلافاً من الزوار في مجتمعاتها المختلفة على مدار السنة، ومن مختلف العقائد والخلفيات.

ولمزيد من المعلومات، قمّ بزيارة موقعنا في شبكة الإنترنت على العنوان:

<http://www.ploughbooks.co.uk/arabic/index.html>

أو أكتب لنا على العناوين التالية:

Danthonia
Glen Innes Road
Inverell NSW 2360
Australia

Beech Grove
Sandwich Road
Nonington, Kent
CT15 4HH England

Villa Primavera
Waldino Lovera 6035
Ascuncion
Paraguay South America

Platclove
Elka Park, NY 12427 USA

Woodgate
104 Clova Road
London E7 9AF
UK

Sannerz
Lindenstrasse 13
D-36391 Sinntal - Sannerz
Germany